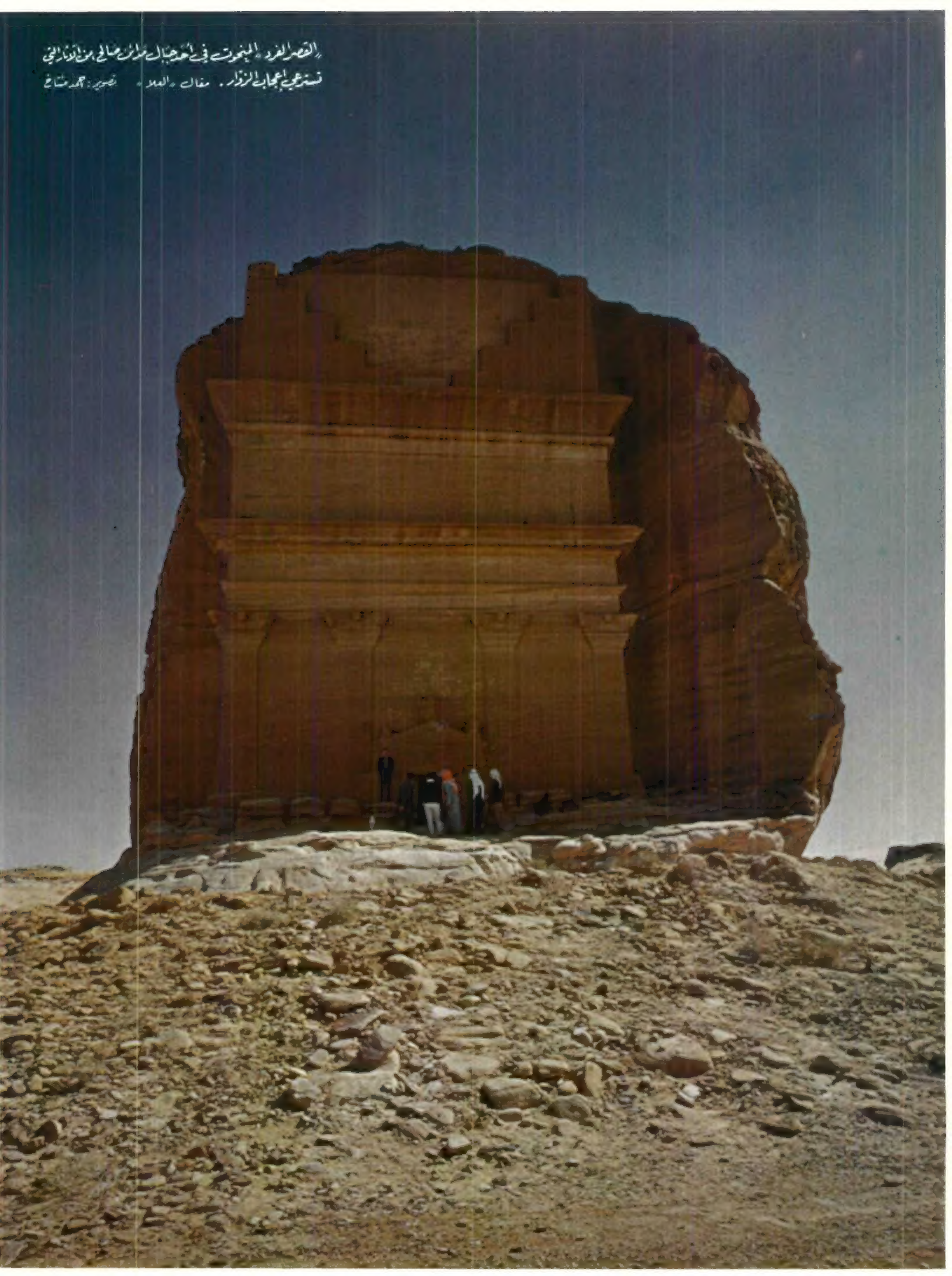


قافلة الزيت

ربيع الثاني ١٣٩١ - مايو/يونيه ١٩٧١



«القصر الفرد» المنحوت في أحد جبال مدائن صالح من الآثار التي تستدعي إعجاب الزوار. مقال «العلا» تصوير: أحمد منّاع

بسم الله الرحمن الرحيم

قافلة الزيت

العدد الرابع المجلد التاسع عشر

تصدر شهرياً عن
شركة الزيت العربية الأمريكية
لموظفيها
إدارة العلاقات العامة
توزع مجاناً

العنوان: صندوق البريد رقم ١٣٨٩
الظهران - المملكة العربية السعودية

محتويات العدد

آداب

علوم

استطلاعات

لقاء مع

المدير العام: مصطفى حسن الخان المدير المسؤول: علي حسن قنديلي
رئيس التحرير: منصور مدني المحرر المساعد: عوني ابو كشك

التعليق على صورة الغلاف

أحد بساتين البرتقال النضرة في مدينة العلا . مقال « العلا » .

تصوير : أحمد منتاخ

الاتجاهات الحديثة في العمل المسرحي في أوروبا

بقلم الدكتور عبدالرحمن ياغي

تمتد الجهود الفنية التي صحبت العملية المسرحية على نطاق مكاني واسع ومجال زماني أبعد اتساعا .. ولعل عملية الاخراج أو التجربة العملية في هذا الصدد تكون أوسع العمليات الفنية تنوعا وأكثرها مدارس واتجاهات ! بل لعل مدارسها تفوق المدارس الفنية التي تنتمي لها النصوص الأدبية للمسرحيات ذاتها .. ذلك لأن المسرحية الواحدة من حيث النص كانت تتناولها أيد متعددة تنتمي الى مدارس في الاخراج مختلفة ، بل تتناولها على اختلاف الأزمنة مختلف الاتجاهات المسرحية في فن الاخراج ! .

ومن هنا كانت متابعة الذروات في هذه الجهود وفي هذه المجالات أمرا على جانب كبير من الأهمية وعلى جانب كبير من الطرافة ! .

ولعل المسرح الأوروبي أن يكون قد مضى بعيدا في أعماق التاريخ حين أراد أن يتخذ لنفسه منابع ومصادر يستمد منها جداوله وأنهاره .. فلقد مضى الى القرن الخامس قبل الميلاد والى بلاد الاغريق وأحيا جهود « ايسكيلوس » و « سوفوكليس » و « يوربيد » ، واطلع المسرح الأوروبي على جميع الجهود الفنية التي بدأت منذ أن اعتلى منصة المسرح ثلاثة ممثلين ، ومضى يتابع تلك الجهود الى أن أصبحت المنصة تضج بحشد كبير من الممثلين .

ثم توالت الجهود المسرحية وانقضى عهد الاغريق وورث الرومان الحضارة الاغريقية ، وأحيا المسرح الأوروبي آثار « بلوتوس » الكوميدي و « تيرنس » ، واطلعوا على كتاب الشعر لهوراس الروماني ، كما اطلعوا على آراء أرسطو في الشعر من قبله ! .

وتابعت العين اليقظة للمسرح الأوروبي جهود المسرح الجوال المتنقل الذي حمل معه بقايا ما استوعبه من المسرحين : الاغريقي والروماني وذلك حين دخلت أوروبا بوابة التاريخ في عصورها الوسطى ، واذا بالنشاطات المسرحية حينذاك تجنح الى أقبية الكنائس ، وتعتزل الحياة ، وتبقى كذلك فترة طويلة من الزمان ، الى أن أشرق عصر النهضة ، فدبت فيها عوامل اليقظة ! ، فقامت حينذاك في القرن الخامس عشر مدارس فنية ، كان همها بعث الفن المسرحي الكلاسيكي ، ولعلها بدأت بايطاليا ، ومنها انتقلت الى بريطانيا وظهر أعلام في فرنسا في هذه المجالات ، أمثال « كورني » و « راسين » ، و « فولتير » ، و « موليير » .. ثم انطلقت جهود شكسبير في بريطانيا ، وأخذت تنمو فيها بذور المدرسة الرومانسية التي رسخت لنفسها الجذور والأصول لتحل محل المدرسة الكلاسيكية .. وكانت أول مسرحية رومانسية في فرنسا عن « كرومويل » لفكتور هوجو .. وحدثت تحولات في التركيب الاجتماعي الأوروبي قفزت بالجهود المسرحية الى الأدوار الحديثة .. وكانت آثار « ابسن » النرويجي ، و « شو » الانجليزي و « تشيكوف » الروسي خير مجال تتحرك في نطاقه جهود المدرسة الحديثة . وامتدت العملية الفنية في الاخراج المسرحي ، فسحبت جهودها على هذه الآثار المسرحية ، وصحبت آثار « ايسكيلوس » ورفاقه ، وشكسبير ومن سبقه ولحقه ، و « برخت » ومن هيأ لظهوره ومن مضى على شاكلته ، و « ميلر » وغيرهم من كبار كتاب المسرح الذين

كانت ثمراتهم مادة في أيدي كبار المخرجين ، أصحاب الاتجاهات الفنية المعاصرة ! .

وهكذا ، فلم تقتصر مدارس الاخراج الحديثة على الآثار الحديثة ، بل تناولت مختلف الآثار التي انتجتها مختلف العصور .. فمنذ سنوات ليست ببعيدة قدم المسرح الأمريكي الحديث مسرحية « ليزا ستراتا » لزعيم الملهاة الاغريقية « أرسطوفانيس » فلاقت من الجمهور الحديث اقبالا عجيبا ونجاحا باهرا ، وكادت تطغى على كثير من الأعمال الفنية المعاصرة في مجال الكوميديا ! .

ولقد اتسعت المدارس الفنية المسرحية وازدهرت في القرن التاسع عشر ، واتخذت مساربها في الاخراج ، وأخذت تمثل اتجاهات مختلفة .. ففي سنة ١٨٨٧ افتتح « أندريه أنطوان » المسرح الحرّ في باريس ، وكان واسع المعرفة عميق الثقافة ، وقد أنشأ مسرحه هذا ليخرج فيه المسرحيات بطريقة طبيعية ذات اتجاه واقعي .. وقد امتد أثره طوال القرن التاسع عشر في فرنسا .. قد انطلقت بفعل جهوده تلك النزعة الواقعية في الاخراج المسرحي ، وعن طريقه دخلت مسرحيات « ابسن » الى فرنسا وكان لمدرسته تلك أثرها في المسارح الأوروبية عامة ! وحين تعلق الناس بهذه المدرسة الجديدة لم تعد تروقهم تلك الوسائل الفنية التي كانت سائدة من قبل منذ أيام لويس الرابع عشر ، حيث كان التفخيم والتكلف والمبالغة في البذخ ! .

ولقد عنيت مدرسة « أندريه أنطوان » بآثار « ابسن » و « سترندبرج » و « هويتمان » و « بريو » وغيرهم من كتاب المدرسة الواقعية ! .

وكان من آثار هذه المدرسة ومسرحها الحر أن أنشأ « أوتوبرام » المسرح الحر في برلين سنة ١٨٨٩ ، كما أنشأ « غرين » المسرح المستقل في لندن سنة ١٨٩١ .. وأنشأ « دانشنكو » و « ستانسلافسكي » مسرح الفنون في موسكو سنة ١٨٩٨ .

ثم أخذت تتفرع عن هذه المدرسة الطبيعية في الاخراج مدارس واتجاهات فنية كانت أشبه بردود فعل لهذه الواقعية التي كان لها تأثير كبير بل كان لها أثر صارم في بعض الأحيان .

ولقد دفعت هذه الحركة الواقعية أحد تلاميذ « أندريه أنطوان » لمقاومة تيارها الصارم فخرج « لوني بو » على أستاذه ، وأنشأ المسرح المسمى بمسرح العمل جنح فيه الى الرمزية والخيال والشاعرية ، وأخرج كثيرا من المسرحيات التي كان قد أخرجها المسرح الحر ، لكن في جو جديد تغلغل فيه الى وراء النص يستشف ما فيه من أعماق ثقافية وأحاسيس شاعرية رمزية .. وقد جذب مسرح العمل اليه جمهورا كبيرا من الباريسيين المتطلعين الى اخراج جديد لمسرحيات « ابسن » و « سترندبرج » و « شو » وسواهم ! .

وهكذا فان الأثر الأدبي المسرحي الواحد المنتمي الى مدرسة أدبية فنية واحدة يتعرض من حيث عملية الاخراج الى مدرستين فنيتين متباينتين ، ويعرض النص على نحوين مختلفين من حيث الاستيعاب والتفسير والأداء والتأثير ! .

وحين هدأت حدة الصراع بين المدرستين .. الواقعية والرمزية ، مدرسة الأستاذ ومدرسة التلميذ .. طلع على المسرح « جاك كوبو » في أوائل القرن العشرين وأسس مدرسة في الاخراج المسرحي مستفيدا من مزايا المدرستين .. وشجعه في اتجاهه الجديد « أندريه جيد » . وحين أحس بمدى نجاح اتجاهه الفني في فرنسا وسع من نشاطه فمضى الى أمريكا في أثناء الحرب العالمية الأولى وأخرج بعض الروايات على مسرح « غاريك » في نيويورك ! وقد أشاد بجهوده الفنية في مجال الاخراج كل من « ستانسلافسكي » في روسيا ، و « كريج » في بريطانيا ، و « ابيا » في سويسرا ، و « فوخس » في المانيا .

ولقد جنح « كوبو » الى تخليص المسرح من كل عوامل البذخ والترف الزائد والعودة به الى البساطة ، لكن في ظل تقاليد أشبه بالتقاليد الكلاسيكية التي تعتمد على التقيد بالنص المسرحي وابرازه في أصوات الممثلين وحركاتهم لا في الزخارف والديكورات والأزياء المبالغ فيها ! .

وقد امتد أثر هذه المدرسة الحديثة الى « شارل ديلان » تلميذ « كوبو » ، صاحب المسرح المحترف ، الذي يقتصر على دائرة ضيقة صغيرة حيث يعمد الى اشاعة جو الغموض في الاخراج المسرحي والى الايحاء بالأحاسيس الشاعرية والتصور البعيد والخيال المجنح . ومن هنا كان للموسيقى دورها في عمليات اخراجه ، وكان للرمزية شأنها لديه .. وقد امتد أثر « أندريه أنطوان » اليه من خلال أستاذه « كوبو » ! .

ثم كان من تلاميذ « كوبو » المبدعين ، الذين أصبحت لهم في الاخراج المسرحي مدرسة خاصة ذات سمات بارزة ، « بتوئيف » الذي أسس في باريس مسرح الفنون ، وقد تأثر هذا بأستاذه « كوبو » وبالمخرج الروسي « ستانسلافسكي » . وكان يبيح للمخرج أن يفسر المسرحية بكاملها في حرية تامة . وقد قام مسرح « بتوئيف » بتقديم الكثير من الروائع المسرحية العالمية لكبار المسرحيين العالميين ، أمثال شكسبير ، وتشيكوف ، وابسن ، وشو .. كما قدم آثار الكتاب المحدثين آنذاك من أمثال كوكتو ، وأندريه جيد ، وغيرهما .

أما التلميذ الآخر للمخرج « كوبو » فهو « باتي » الذي لم يجد من الضرورة التقيد المطلق بالنص الأدبي أو عدم المساس به ، اذ كان يرى أن ليس للنص أن يتحكم بالعملية الفنية المسرحية .. ولذلك نراه قد صب كل اهتمامه على الممثل ، وجعله يتشكل بين يدي المخرج كيفما شاء الأخير .. وكأنما كان يرى أن المخرج شريك للمؤلف في الغوص على الأعماق واكتشاف الزوايا الغامضة في النص . وقد أخرج على هذا النحو مسرحية « الجريمة والعقاب » ، و « مدام بفاري » . ولم يقبل أن يكون مسرحه بسيطا عاريا كمسرح أستاذه بل استعان بالكثير من الوسائل الفنية لكي يضع الممثل في اطارها ! .

أما تلميذ « كوبو » الذي جعل كل همه اخراج النص وجعل الكلام وقوته وتأثيره أهم شيء يعرضه المسرح ، ورفع من شأن الكلمة ، وأحاطها بهالة من التقدير والاكبار ، وجعلها صاحبة المكانة الأولى على خشبة المسرح ، فهو « لويس جوفيه » صاحب المسرح الكلامي اذا جاز لنا التعبير ! .

ولعل اهتمام « جوفيه » بالنص قد وثق العلاقات الطيبة بينه وبين عدد كبير من الكتاب المسرحيين . وقد كان يعكف على النص ليتفهمه . وينقل هذا التفهم بكل أحاسيسه الى الممثلين ، ومن هنا فقد كان يتغلغل الى نفس المؤلف وينفذ الى أعماق روحه ! .

وعلى هذا فالنص الأدبي للمسرحية أصبح مجرد طرف في مجموعة أطراف تتطلب الاداء التمثيلي ، حتى تتم وتستوي عملا فنيا كاملا ! .

ومن هنا فقد كانت العلاقة بين الكاتب المسرحي أو صاحب النص الأدبي المسرحي وبين المشرف الخبير على عملية الاخراج علاقة ذات أخذ ورد وشد وجذب وارخاء وصد ؟ وتعرضت لهزات حينا ولمصالحات واتفاقات وتنازلات في أحيان أخرى .

ومن صور هذه العلاقة ما فعله الكاتبان المسرحيان الكبيران : « ييتس » و « اليوت » حين اشترطا من أجل الابقاء على شكل مسرحياتهما الأدبي الجاد احداث تغيير في المسرح نفسه . وفي أوائل القرن العشرين قال ييتس : « اني أرى أن يد الاصلاح ينبغي أن تمتد الى المسرح : في مسرحياته ، وحواره ، وأدائه ومناظره ، فليس في المسرح الحالي شيء يستطاب » .

وقال « اليوت » بعد ذلك بثلث قرن : « أرى أن المسرح قد وصل الى مرحلة تتطلب احداث تغيير جذري فيه يتناول أصوله وقواعده » .

ومن صور هذه العلاقة كذلك ما أحسّ به المخرج المشهور « مارشال » الذي عمل مخرجا في المسارح الصغيرة ، حين رأى مجموعة من الأخطاء تترسخ في « الوست اند » حي المسارح في لندن .. ومع هذا الذي رآه وأحس به لا نجده يعلي من شأن المسرحية من حيث هي نص أدبي خالص . فالعملية الفنية لديه لا تعدو أن تكون تمثيلا واخراجا تجريبيين لنصوص « ذات قيمة وقتية محدودة » .

ومن هنا فقد نظر خبراء الاخراج نظرات مختلفة الى تلك التوجيهات والاشارات المسرحية والأوصاف التي يوردها الكتاب في ثنايا نصوص مسرحياتهم الأدبية .. وقد قبلها بعض المخرجين حين رآها تلتزم اطارا عاما ولا تتدخل في التفاصيل الجزئية .. ورفضها مخرجون آخرون منهجهم اخضاع الاخراج لأفكارهم وتصاميمهم وممثليهم ! حيث يرون أن من شأنهم وحدهم السيطرة على الاشارات والحركات والتجميع وعناصر تصميم المناظر والاضاءة وما الى ذلك من العناصر التي يعتمد عليها تأثير المسرح في الدرجة الأولى .

وكأنما أخذ الكاتب المسرحي يتخلى شيئا فشيئا عن التشبث بزمام الأمر فيما يتصل بالاخراج لعمله المسرحي ! وأصبح الكاتب أجنح الى المهادنة حين أصبح الأداء والاخراج المسرحي هو القادر على التعبير الصحيح عن النص الأدبي وبدون هذا الاخراج لا يعدو أن يكون النص اطارا وضعيا ، كما يقولون .

وحين خضعت الآثار الأدبية لنوازع الربح والخسارة والى الأطماع التجارية والكسب ، فأثر فيها مدى الرواج واقبال الناس على العرض .

وحين عرض للعلاقة بين هذا المخرج الخبير وبين كاتب النص المسرحي الأدبي حدد للمؤلف الكاتب حدودا ينبغي ألا يبعد في تجاوزها وجعل اطارها تأليف النص المسرحي وتوضيح الحوار من خلال النص والكشف عن زمن الأحداث ومكانها وايراد بعض الاشارات المبينة

وليس من شك في أن لهذا العامل أثره الخفي والظاهر حتى لدى كتاب النص المسرحي الأدبي أنفسهم .. فقد قيل في هذا الصدد ان الكتاب المسرحيين في العصر الاليزابيثي كانوا يتمثلون ممثلين بعينهم وهم يكتبون مسرحياتهم .

ويروي « نورمان مارشال » في هذا الصدد تجربة للمخرج المشهور .. « تيرنس جراي » .. في عيد المسرح في « كمبردج » حين عرض مسرحية « تاجر البندقية » لشكسبير ، وكانت قد راجت وألح الناس على مشاهدتها وتكرر طلب عرضها لأسباب خاصة في حينها .. وكان « جراي » يرى أنها مبعث ملل له وللأذكياء من الجمهور .. ولكنه مضطر ازاء الالحاح الى اعادة عرضها .. ولقد عصف « جراي » بكل احترام للنص الأدبي ، كما ورد في مخطوطة شكسبير ، وعمد الى اخراج المسرحية دون أن يحاول قط اخفاء الملل الذي أصابه من جرائها .. فما الذي فعله جراي ؟ .

كانت طريقته في تحاشي الملل هي أنه اعترف على رؤوس الأشهاد وفي صراحة تامة بملله .. فحين مضت البطلة في حديث طويل عن طبيعة الرحمة والشفقة جعل « جراي » المحكمة تنغمس بكامل هيئتها في نوبات من السآمة الكئيبة والتثاؤب التعيس وجعل الحديث يتردد في رتابة مملة ، كما لو كانت الممثلة تعيده للمرة الألف ! وكأنما أباح « جراي » لنفسه أن يشارك شكسبير في توجيه المسرحية . وبهذا ضمن « جراي » أن يكون عرضه باعثا على التسلية لدى الجمهور الحديث أكثر بكثير مما لو التزم الاخراج بصورة يحافظ فيها على احترام مخطوطة شكسبير ونصه الدقيق ! .

من أجل هذه المواقف المتفاوتة نشأت مدارس للاخراج الفني ذات سمات ومميزات خاصة ثارت على كثير من الأوضاع التقليدية ! .

ولعل « جوردون كريج » أن يكون من أشد الثائرين في عملية الاخراج المسرحي في بداية القرن العشرين حين أحس أن الجماهير التي تتوافد على صالات العرض انما تنشد التأمل والتفكير والرؤية المتعمقة لا الاستمتاع بالمسرحية أو مجرد الترفيه عن النفس . ومن أجل ذلك كان لا بد من ملء كل فسحة فراغ بحيث تغذي هذه الرؤية وتمدها بتشكيلات تملأ على المشاهد نفسه وحسه وفكره ! ومن أجل ذلك كانت حملة « كريج » على من سبقه من طليعة المخرجين وعلى الممثلين والاداريين ومديري المسارح . وقد رأى أن تعدد الاختصاصات في المسرح يفسد على المخرج وحدة العمل الفني .. ومن هنا كانت حملته الكبرى على التفتيت والتمزيق والتجزئة في المسرح البريطاني والمسارح الأوروبية في زمانه ! ويعزو « كريج » السر في تخلف الفن المسرحي الأوروبي حينذاك الى فقدان المتخصص الفني الواسع الثقافة ، بحيث يعلم سر الأزياء في عصر من العصور ، ويعلم سر الألحان التي يتطلبها مشهد معين ، ويعلم سر الضوء ودرجاته والألوان ومدى تأثيرها وامتداداتها وأبعادها على خشبة المسرح ، ويعلم كيف يقدر التكاليف في الديكور والمناظر المطلوبة ..

لنوع المكان وشكله وطقسه مثلا .. وهي اشارات يهتدي بها المخرج ويستند اليها في تمثله للجو الفني والاطار الذي سيخرج فيه المسرحية حتى لا يفسد الجو الذي يناسب اللغة وحركة الاحساس والجمال العام !

ومن هنا فان المغالاة في التوجيهات والاشارات والتنبيهات التي يوردها المؤلف في ثنايا النص المسرحي فيما بين قوسين انما تشكل اعتداء صريحا على وظيفة المخرج المسرحي وفكره ورأيه ورؤيته ، على حد رأي « كريج » ، وهي أشبه بعمل المخرج حين يعمد الى اقحام نص من عنده في الحوار ، أو حين يعمد الى حذف جوانب من الحوار .. فكما أن الاقحام أو الحذف لا يرضي المؤلف بحال ، فكذلك اقحام المؤلف لهذه الاشارات والاسراف فيها اعتداء على حق المخرج !

وهو يرى أن الاضافات التي يوردها المؤلف انما هي للقارىء المسرحي لا للمشاهد .. ومن هنا فان« كريج » يرى أن هذه الاشارات الكثيرة التي تطفح بها نسخ مسرحيات شكسبير والتي أقحمها الشارحون والناشرون تسيء كثيرا لفن الاخراج ! ولقد ارتبطت شخصية « كريج » الفنية ارتباطا وثيقا بشخصية « هملت » التي كانت أحب الشخصيات الى قلبه ونفسه .. ومن هنا كان تمثيله لدور « هملت » مرتبطا ارتباطا وثيقا بحياته في جميع الأدوار .

وقد طوّف «كريج» معظم البلاد حاملا معه هذه البذور الفنية في الاخراج الى معظم مدن أوروبا الكبيرة منها والصغيرة ، فأثمرت وآتت أكلها في مدرسته الجديدة في الاخراج .. وفي حملته على الأشكال الواقعية والطبيعية واهتمامه بالايحاء الذي يصرف النظارة عن الانشغال بالتفاصيل مستعيدا من الرومانسية في التعبير عن أفكاره ومنتفعا بكل الوسائل الآلية الحديثة ، كالاضاءة المسرحية وغيرها . وجاعلا الممثل جزءا لا ينفصل عن فن العرض المسرحي شأنه في ذلك شأن الاضاءة والديكور والملابس والأثاث . وقد كان اهتمامه بملء الفراغ فوق خشبة المسرح باعثا له على الاهتمام بقيمة الألوان .

من أجل ذلك كله رأينا مدارس في أوروبا تتزعمها طليعة من المخرجين كان لهم دورهم الفني الكبير .. فكان هناك « كريج » في انكلترا .. و « أدولف ابيا » في سويسرا .. و « ماكس راينهارت في المانيا » .. و « ستانسلافسكي » في روسيا .. و « جان فيلار » ، و « جان لوي بارو » في فرنسا .

وليس من شك في أن هذه المدارس الفنية كانت تتأثر وتؤثر بعضها في بعض .. فحين أرسى « ستانسلافسكي » قواعد مدرسته الجديدة ، كان قد تأثر بكثيرين من رجال المسرح العالمي .. وبالتالي امتدت تيارات مدرسته الفنية حين رسخت أصولها الى كل بلدان العالم في النهضة الحديثة للمسرح . وهكذا فقد قفز « ستانسلافسكي » بالمخرج المسرحي الى الخطوط الأمامية في العملية المسرحية ، وجعله يمسك بزمام المسرحية والمسرح والمشاهدين .. واذا (بالمخرج المفكر) يغدو شعار العمل المسرحي الناجح ، ويقول : « ان فن الاخراج يبدأ عندما يعبر المخرج عن مضمون المسرحية ويكون مترجما أمينا لأفكارها .. ففن المسرح أثبت في كل وقت أنه فن جماعات .. هكذا ولد ، وهكذا سيظل دائما .. حيث ترتبط أفكار المؤلف ومواهبه مع أفكار الممثل ومواهبه لذلك وجب على المخرج أن يكون دائم اليقظة عند فحصه للشخصيات التي أوردها المؤلف ومطابقتها وهل هي شخصيات درامية أم لا ؟ .. »

هذا ، وقد كان هدف المسرح الجديد الواقعي هو الحياة التي تحمل هموم المشاهد خاصة .. من أجل هذا كان للمسرح الواقعي أن يعيش مع الناس بأحاسيسهم .. وينبغي على المخرج أن يحس بأن العصر يوقظ المشاهد ويبعث فيه الوعي كي يملأه بالأفكار .. أما أشكال العرض والوقفات والأوضاع المثيرة أو اللافتة والزركشة الصارخة والألغاز والغموض المثير والخدع المحيرة فلم تعد هي التي تحدد مدى جودة العمل المسرحي .. انما الذي يحدد ذلك هو الأمانة والقدرة على نقل الأفكار التي تتفق وأفكار المؤلف ومدى تمثل المخرج لهذه الأفكار ومدى تأثيرها في سلوكه وتصرفاته ومدى جدارة مضمونها !

ويمتد أثر هذه المدرسة وينتشر في المسارح المختلفة وتتحدد فيها بدقة العلاقات المختلفة بين المخرج والكاتب المسرحي والممثل والمشاهد !

أما المدرسة الفرنسية في فن الاخراج فقد أتيح لها في القرن العشرين علم من أعلام المسرح ينتقل بها الى قمم جديدة كتلك القمة التي ارتقى اليها « كريج » في بريطانيا ، وستانسلافسكي في روسيا .. وهذا العلم هو « جان لوي بارو » الذي يبدو أنه قد تأثر كثيرا بطريقة « كريج » .. فهو يخضع للفكرة التي تتكون لديه بعد أن يعكف على قراءة النص المسرحي .. ويولي عنايته لكل النوازع والتأثيرات الفنية والسيكولوجية التي يجندها في خدمة النص . بيد أنه لم يتأثر بالمدرسة الطبيعية في الفن ، بل انصرف عنها بعيدا .. ولعله كان من أبرز تلاميذ « جاك كوبو » ، ولا سيما حين قام بدور هملت الذي كان متعلقا به الى حد بعيد ! وحين رسخت قدمه في فن الاخراج على منصة مسرح « الأوديون » ، ظهرت سمات التجديد على فنه الذي تميز بالموضوعية الفنية الواضحة في خط سيره منذ البداية .. وقد تحكم في الوسائل الفنية للاداء المسرحي وأخضعها للمضمون العميق الذي يشتمل عليه النص بحيث يبرز هذا المضمون واضحا للممثل والمشاهد .. واهتم « بارو » بالحركات الصامتة التي يتجلى فيها عمق النظريات الفلسفية والفكرية التي تتكشف له في تفهمه وتعمقه للنص المسرحي ! ومن هنا فقد كان موضع اعجاب وتقدير عند أستاذيه : « ديلان » و « كوبو » لما قدمه لهما من أبعاد جديدة للعمل المسرحي !

وهكذا فلم يكن النص المسرحي عنده جوهر العمل الفني ، بل كان واحدا من مجموعة مكونات تجتمع كلها وتتفاعل وتتعاون على اخراج العمل للجمهور في صورة وحدة متماسكة مؤثرة ! ..

هذه المدارس الثلاث .. البريطانية .. والروسية .. والفرنسية .. بجهودها الواسعة في خدمة العمل المسرحي وتطويره .. كان لها أبعادها وآثارها الفعالة في خدمة النهضة المسرحية ، كما كان لها أثرها البعيد في تطوير المدارس والاتجاهات الفنية التي قامت حول الآثار المسرحية ! ■

«شكسبير» والشخصية العربية

بقلم الاستاذ عبدالرحمن صدقي



المقدمة

من الأحكام العالمية الأدبية ، المتفق عليها بالاجماع بين المؤرخين الثقات للآداب الأوروبية ، ان قمم الأدب العالمي في بلاد الغرب عبر الأحقاب التاريخية ، يمثلها في العصور الوسطى الشاعر الايطالي « دانتي » ، وفي عصر النهضة الذي ازدهر في القرن السادس عشر الشاعر الانجليزي « شكسبير » ، وفي التاريخ الحديث الذي بدأ في أواخر القرن الثامن عشر الشاعر الألماني « جوته » .

وكان من الطبيعي أن يكون لكل واحد من هؤلاء موقفه الذي تتمثل فيه بطبيعة الحال روح عصره، وهي من أعظم الأحداث شأنا من الناحيتين الروحية والعمرانية ، بعد سقوط الامبراطورية الرومانية . وغني عن البيان ، أن المقصود بهذا الحدث هو دون سواه ، ظهور الاسلام خاتم الأديان ، واستقرار الشخصية العربية ، وانتشار الحضارة الاسلامية .

أما الشاعر الايطالي ، فهو – كما هو معلوم – صاحب تلك الملحمة الشعرية التي سمح فيها لخياله أن يتمثل الجحيم – كما فعل شاعرنا أبو العلاء المعري – متوغلا في دركات جهنم الى أسفل سافلين ، واصفا لأهوالها دركا دركا ، معدّدا ما يلقاه فيها أهل الضلال على أيدي الزبانية ، من ألوان العذاب والنكال . فاذا انتهى بالشاعر المطاف ، ارتقى من هذه الهاوية الى الأعراف ، القائمة بين الجحيم والنعيم ، حيث يقوم المطهر . وأخيرا يسبح خيال الشاعر الى السماء ، متأثرا بما ترجم في عصره الى اللغة اللاتينية من قصة الاسراء الاسلامية ، دون ما اشارة الى القصة الاسلامية على لسانه أو على ألسنة الشارحين ، حتى كشفت عن ذلك أخيرا دراسات الباحثين المتخصصين من علماء الأدب المقارن المحدثين .

أما في التاريخ الحديث ، وعلى وجه التحديد في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر . فقد عني الشاعر الالماني « جوته » بالأدب العربي في الجاهلية كما تناول بالتجلة والاحترام القرآن الشريف ، وأورد منه بعض الآيات من قبيل الشواهد والمختارات ، كما تغنى بالاسلام في منظومته البديعة التي أسماها « النشيد المحمدي » ،

فضلا عن محاولته المسرحية لاظهار جوانب العظمة في شخصية « محمد » النبي العربي عليه الصلاة والسلام .

ونعود أخيرا وليس آخرا ، الى عصر النهضة الأوروبية في القرن السادس عشر ، حيث ازدهر المسرح الانجليزي وظهر على سائر المسارح تفوقه وسبقه ، لنذكر ثالث الثلاثة وواسطة العقد « شكسبير » . فاننا واجدون هنا ، بين مسرحيات رائد المسرح العالمي ، مسرحية كبرى من بدائع فنه وروائع آياته ، أدار موضوعها على من أسماه « عطيل » القائد العربي في « فنيسيا » « Othello, the moor of Venice » ولم تكن « فنيسيا » بالقطر المجهول عند العرب ، بل كانت للعرب معها علاقات تجارية وسياسية ، واسمها عندنا حتى اليوم « البندقية » ، وهي واقعة — كما هو معروف — في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة الايطالية .

وفي هذه المسرحية الشعرية ، تناول شكسبير للمرة الأولى والأخيرة « الشخصية العربية » بالتصوير والتحليل ، مستعينا على هذه المحاولة الجريئة القوية ، بكل ما أوتي من عبقرية .

«عطيل» و«ديدمونة»

ذهب شاعر فرنسا « فكتور هيجو » الى آخر ما شاء له مذهبه الرومانتيكي في اصطناع الخيال الوهمي ، حين وصف لنا في كتاب له عن « وليم شكسبير » ، كيف نشأت العلاقة بين « عطيل » العربي ذي الشعر الأسود والبشرة السمراء ، و « ديدمونة » حسناء البندقية الذهبية الشعر ، البيضاء ، فقال :

« من ذا يكون عطيل ؟ انه الليل ذو الطلعة العظيمة المهيبة . وهذا الليل بالصبح متيم .. الغسق يعشق الفلق ..

فهنا ، ما أسهل الغيرة !

ان عطيل رجل عظيم القدر ، جليل الشأن ، تعلو هامته على هام الرجال جميعا ، في ركابه الشجاعة ، والمعارك ، والأبواق ، والرايات ، والشهرة والمجد ، وأشعة عشرين نصرا .

عطيل هذا ملوءه النجوم المنيرة ، وهو مع ذلك أسمر .

هذا البطل ، من فعل الغيرة ، سرعان ما صار وحشا . هذا الليل سرعان ما صار رمز الموت .

والى جانب عطيل ، الذي هو الليل ، نرى « اياجو » الذي هو الشر .

ان الليل هو ليل الأرض ، أما الشر فهو ليل النفس .

ما أحلك سواد الخيانة والكذب .

ان من تجري في عروقه الخيانة ، كمن يجري في عروقه الحبر بدلا من الدم .

هذا الوصف كتبه « فكتور هيجو » نثرا رائعا ، ولكنه — مع متعته — لا يفسر لنا الا شيئا واحدا من جملة أشياء ، وذلك الشيء هو : التجاذب — أحيانا — بين الاضداد .

أما الشيخ ، والد الصبية الشقراء « ديدمونة » ، وهو الوجيه « برابنسيو » عضو مجلس الشيوخ في البندقية ، فيحتج في غضبه الشديد بتفسير آخر لهذا السر ، تفسيرا آخر لا يعدل عنه : انه السحر ، ولا شيء غيره .

ولنستمع الى الوجيه « برابنسيو » ، يواجه عطيل ، وقد ذهب في طلبه ليلا ، بهذا الاتهام الشنيع :

برابنسيو : أنت أيها السارق الشقي ، لقد والله سحرتها ، واني لأستشهد بكل من له مسكة في العقل ، على انك لا محالة أوقعتها في عقال السحر ، ولولا ذلك ما كانت فتاة بتلك الرقة وذلك الجمال ، فتاة منعمة كل النعيم ، فتاة ظلت معرضة عن الزواج الى حد عدم الرضى بأغنى وأجمل شبابنا ، فاذا هي تتعرض لسخرية الناس جميعا بخروجها عن وصاية أبيها والتجائها اليك . أليس واضحا وضوح النهار انك استخدمت الرقى للتأثير على نفسها الغريرة ، واستعنت بالعقاقير للاستحواذ على محاسنها النضيرة ؟ »

وعلى خلاف هذين التفسيرين ، كان تفسير شكسبير . فالواقع ان النبيلة الحسناء « ديدمونة » التي كانت أجمل فتيات البندقية وأنصعهن بياضا ، كانت — على عكس ما ذهب اليه شاعر فرنسا « فكتور هيجو » — لا تلقي بالا الى سواد لون القائد العربي عطيل ، حتى نجاري الشاعر الفرنسي على زعمه ، أن ما كان من التجاذب بين الاثنين ، كان قائما على التضاد بين اللونين .

والواقع أيضا ان القائد العربي الذي عشق « ديدمونة » الصبية الشقراء التي تصغره سنا الى حد كبير ، وتختلف عنه لونا الى حد كبير ، بريء كل البراءة مما اتهمه به والدها ، من انه استعان على استهواء الصبية بالتعاويذ والرقى والعقاقير .

ويكفينا في نقض التفسيرين ، سيان ما قاله الناقد « فكتور هيجو » أو احتج به الوالد « برابنسيو » ، أن نرجع الى ما حكاه عطيل في حضرة الوالد الحاقد نفسه ، فهو وحده الواقع الحقيقي الذي يؤيده التاريخ ، وخاصة تاريخ تلك الفترة ، كما يؤيده أكثر شواهد الدراسات النفسية العميقة الحقة .

عطيل : « سادتي ، سأقص عليكم — ان أذنتم — بكلمات موجزة صريحة ، غير منمقة ولا مزينة ، تاريخ غرامي ، ذاكرا لكم العقاقير والطلاسم التي استخدمتها لاغراء كريمة الوجيه ، حتى تعلموا مبلغ ما في تلك التهمة من الصحة . لقد كان أبوها يحبني ، فكان كثيرا ما يدعوني ، فيسألني أن أقص عليه ترجمة حياتي مفصلة سنة سنة ، وبيان المكافحات والمحاصرات التي شاهدتها وتعديد ما أحرزته من الانتصارات . فكنت أجيبه الى طلبه حتى لم تبق في حياتي كبيرة ولا صغيرة الا حدثته بها ، وذلك منذ نعومة أظافري الى اليوم الذي كنت أجالسه فيه . فمما وصفته له من الطوارىء العجيبة والفواجع المبكية التي لقيتها برا وبحرا ، من مثل ما جرى لي في بعض الأيام ، وقد أوشكت أن أقتل في ثلمة في أسوار الحصار ، لولا لطف من الله تداركني وأنا من القتل على قيد شعرة .. ومن استشاري يوما لعدو قبيح باعني بيع الرقيق ، ثم شرائي رقبتي .. وغير ذلك من ضروب الغرائب التي صادفتها في أيامي ، وكان في خلال حكايتي عن تلك المواقع ، يدخل في كلامي تصوير مغاور فسيحة ، وصحاري قاحلة ، ومحاجر غائرة كالحة ، وصخور وجبال تشمخ بقممها الى عنان السموات . كل هذه الأعراض كانت تمر تباعا في أقوالي ، ناهيكم بمشاهداتي لأقوام غريبي الأشكال والصفات . وكانت ديدمونة تسمع هذه الأقاصيص بشغف .. »

وقبل أن يمضي عطيل في رواية سيرته الى النهاية ، نود الاستشهاد بتاريخ العصر الذي كانت تحياه أشخاص المسرحية — وهو عصر النهضة الأوروبية . فلقد كانت تسود المجتمع في ذلك العصر روح المغامرة الجامحة ، لا في الحروب

وحدها ، بل في الكشوف المحفوفة بالمخاطر والمهالك ، سواء في مجاهل الآفاق النائية عبر البحار العاتية الى النصف الآخر من الكرة الأرضية ، أو جوب القفار الموحشة الشاسعة واختراق الغابات المتشابكة المتكاثفة في القارة المظلمة الأفريقية ، وما حمله الرحالة الأذكياء وما نقله بعض رجالهم البسطاء عن هذه الأقطار البعيدة من الأخبار العجيبة التي تجمع بين الحقائق والخرافات ، من الظواهر الواقعية والأوهام الخيالية ، وبالجملة كل أنواع المبالغات ، من محاسن ساحرة ، وأهوال مرعبة ، مما كان له لا محالة قوة التأثير في نفوس فتيان وفتيات هذا المجتمع . ولا شك ان نفوس الفتيات كانت أسرع وأعمق تأثرا ، بحكم بعدهن عن ممارسة تلك الحياة ، مع رقة احساسهن وسبحات خيالهن ، وذلك على قدر ما أوتيت تلك النفوس من الاستعدادات للتأثر السريع العميق .

ولقد كانت حسناء البندقية « ديدمونة » من هذا القبيل ، كما مر بنا من أقوال عطيل . ونحن واجدون فيما يلي من تتمة أقواله ما هو أصرح :

عطيل : « ولما كانت بعض مشاغل البيت تضطر ديدمونة بين آن وآخر للقيام ، فانها كانت اذا انصرفت لها ، قضتها بأسرع ما تستطيع وعادت تشرب حديثي بأذن ظمأى . فلما لمحت ذلك التأثر منها ، استدرجتها ذات يوم في ساعة مناسبة ، لتسألني أن أقص عليها بالتمام سيرة رحلاتي التي كانت قد سمعت منها نتفا ، ولم تتمكن من متابعتها . فأعدت عليها السيرة كما أرادت ، فكنت أراها غير مرة تبكي رحمة لشبابي مما أصابني فيه من الأرزاء الأليمة . وعندما ختمت قصتي كافأتني عليها بتنهدات . ولقد قالت في بعض ما قالت : انها كانت تود لو خلقها الله رجلا على هذا المثال . ثم كاشفتني بأنه اذا كان لي صديق يحبها ، فحسبي أن أعلمه كيف يعيد على مسامعها ترجمة حياتي ، لترضى به قرينا . هذه العبارة جرأتني ، فبحت لها بما في ضميري . وعلمت منها انها أحبتني بسبب الأخطار التي خضتها ، وشعرت من نفسي اني أحببتها لما تبينت من شفقتها عليّ ورقتها لي . ذلك أيها السادة ، هو الفن الوحيد الذي توسلت به اليها . »

من هذا البيان على لسان الزوج العربي الافريقي ، نعلم علم اليقين ، أن الجسد لم يكن له شأن في غرام « ديدمونة » بالقائد العربي . أو بعبارة أصرح ، ان دافع الرغبة عند النساء لم يكن هو الذي اجتذبها اليه ، بل كان جاذبها اليه هو تقديرها لصفاته البطولية . وليس هذا بغريب عند هذه النبيلة في مثل سنها الغريرة ، وخاصة في القصر الذي كانت فيه أمثال هذه الفضائل خليقة بأن تكون زينة الرجال وميزتهم على غيرهم ، وخاصة عند النساء — من أمثال ديدمونة — المطبوعات على العفة وسمو الخيال .

مثل هذا الحب من شأنه الدوام . لولا أن شاء سوء الطالع ، أن تعرض هذا الحب الذي كان ثمرة الاختيار الحر ، الى ما تعرض له من حيث لا يحتسب العاشقان — عطيل وديدمونة — على يد صديق الأسرة الذي كان أول المطلعين على الموعد المضروب سرا لاتمام الزواج ، فشرع قبل اتمامه وبعد اتمامه ينصب الأحابيل المتقنة المحكمة حتى أحال ما كان فيه العاشقان من نعيم ، الى ما هو أشد ايلاما من العذاب في أسفل درك الجحيم .

ومن ذا يكون هذا الصديق ، الا « اياجو ابن البندقية ، الذي أبدع شكسبير في تصويره ليقوم بدور « الخبيث الشرير » .

وصف شكسبير لرجل الطيبة ، ورجل الحقد

من مطالب التأليف للمسرح على وجه الخصوص ، القدرة على تحديد المعالم وابرازها عند رسم كل شخصيات المسرحية ، حتى يجيء تبيانها في السمات الخلقية واضحا في الأذهان ، وضوح تباينها في الثياب من حيث الزي والألوان والشيات تبعا للأقاليم والمهن والطبقات في الحياة .

ومن المعروف المشهور ، ان هذه المقدرة على اظهار الفروق بين الشخصيات ، تعد في المقدمة من الملكات التي امتاز بها شكسبير على غيره من المؤلفين المسرحيين . ولعل هذه المقدرة أظهر ما تكون عند شكسبير في مسرحية « عطيل » بالذات ، بسبب هذا التباين البارز ، بين شخصيتي « اياجو » البندقي وعطيل العربي . فالشخصيتان من فرط التباين على طرفي نقيض .

ومن الشواهد عندنا على الروح العالمية الانسانية التي يمتاز بها شكسبير في عمقها وشمولها ، انه كان في مسرحية « عطيل » ذاتها أعمق بكثير ، من أن يعتمد — كالكثيرين غيره — على لون الجلد ، في تصويره لهذين النقيضين : رجل الطيبة والنبل ورجل المكر السيء والحقد . وذلك انه لم يخص برذيلة الحقد الرجل الملون كما جرت العادة ، بل جعلها من نصيب الرجل الأبيض « اياجو » البندقي ، في حين استقل الرجل العربي « عطيل » بالقدر الأوفر من الفضائل النفسية الطبيعية التي احتفظ ، وسط مفاسد المدنية ، بها في نقاوتها الأصيلة الأولية .

ولا شك ان الذي جعل قوة تصورهما وتصويرهما ، أشد وطأة وأبعد ايغالا في التأثير على النفوس ، ذلك التماسك الثابت المطرد في اقامة كيان كل منهما في اطار نوعه ، وتلك المتابعة في دعم سمات كل منهما ومميزاته في اطار معالمه ، وذلك طوال سياق المسرحية منذ ارتفاع الستار عن بلاد البندقية في جمالها وأبهة سلطانها ، ومظاهر غناها الرائعة ، حتى نزول الستار على الخاتمة الغرامية الفاجعة .

والشاعر الانجليزي — كما قلنا — لم ينكر ، وهو يصور « عطيل » ، فضائل الشخصية العربية . فعطيل في المقام الأول نبيل الفطرة ، شريف الطبع ، عزيز النفس ، عالي الهمة . وهو في ميادين الحروب ، ينهض بأعبائها ويخوض أهوالها ، ولا يبخل بالدم وبذل النفس الغالية في سوقها ، حتى وان تكن الحرب لنجدة الغير ، حفاظا منه للعهد وما بذله من الوعد ، فضلا عن حرصه على شرفه الحربي من الهوان اذا حل به الانهزام ، وايثاره الموت الزؤام على ضياع الجاه الشخصي وسقوط الكرامة ، بخلاف ما في الانتصار واحراز أكاليل الغار من الرفعة وزيادة الاعتبار . ثم ، هو في نقاء صوره وصدق طويته وسلامة نيته ، يحسن الظن بالناس ويخلد اليهم بثقته . كما انه حي الوجدان ، ألوف عطوف ، في نفسه سخاء وسماحة وأريحية .

وكذلك أخيرا ، وليس آخرا ، ذلك الدم العربي الحار الذي يجري في عروقه كسائر العرب ، والذي يصير أحرّ وأخطر ما يكون عند الاشتعال ، اذا هو استثير من ناحية شعوره بالمساس بكرامته او الافتيات على حقه فعندها ، لا حائل من المصلحة ، ولا رادع من احتمالات الندم أو دواعي الرحمة ، يحول ويردع . بل يندفع العربي دون أن يلوي على شيء ، وهو على وعي تام بما يركب من المخاطر وما يتعرض له من الحتوف ، وخاصة اذا كان الدافع هو الغيرة على العرض ..

عطيل العربي الغيور ، كما صوره « شكسبير »

لقد وضع « شكسبير » على لسان « أياجو » الشرير ، — في المشهد الثالث من الفصل الثالث من « مأساة عطيل » مقطوعة من الأبيات لا تنسجم مع طبيعة هذه النفس الشريرة ، لما تنطوي عليه لأصحاب الفكر من المعنى الرفيع ، وما لها من النفوس الكريمة من الوقع العميق ، حتى سارت بعدها مسير الشمس في الآفاق ، وأصبحت من مضارب الأمثال في الحكمة ، ومن جوامع الكلم في الأخلاق ، سواء في لغتها الأصلية ، أو مترجمة الى سائر اللغات . وهذه هي مترجمة عن الانجليزية الى اللغة العربية بقلم الأستاذ العقاد

أرى الذكر للانسان أنفس جوهر
تصان به أعراضه ومناقبه
وما سارقي من يسرق المال ، أنني
أرى المال من يظفر به فهو صاحبه
تقلب في الأيدي ، فقبلك كاسب
حواه ، وقد يحويه بعدك كاسبه
ولكن من يسلب من المرء عرضه
فذلك في شرع الحقيقة سالبه

هذا هو المعنى الرفيع العميق ، الذي لم يكن يردده ، « أياجو » على مسامع « عطيل » لولا غرض في نفسه خسيس ، هو التهويل على عطيل نفسيا لتهيئة نفسه للشك الذي قدح شرارته في صدره العريض الجياش ، ثم هو بسبيل اذكاء هذه الشرارة — شرارة الشك — بالوقود في أثر الوقود من الحكايات الملفقة والأخبار المزيفة حتى تندلع نار الغيرة العمياء مجنونة هوجاء ، لاعتقاده أن قائده العربي مصاب وأمثاله من العرب بجنون الغيرة ، فحسبه كلمة وشاية ليخرج من فوره عن طوره ، فاذا هو كالمجنون ثائر لا يبقي على شيء من حوله الا حطمه ، ولا يذر أحدا في طريقه الا قضى عليه ، وان يكن أحب الأحباء الى نفسه ، وان يكن نفسه .

ولكن « أياجو » البندقي على فرط ذكائه وفطنته ، لم يعرف من قائده العربي الا ظاهر غضبه وحده . ولو تعدى أياجو الظاهر الى ما وراءه لما أعياه أن يلمس في عطيل عنصر التعقل حقيقة طبيعية حتى في نقمته ، كما يدل على ذلك تعقيبه على تلميحات أياجو على تصرفات زوجته ابتغاء اثارته :

عطيل : أنا لا تستفز غيرتي بأن يقال أن امرأتي جميلة ، وأنها تشتهي أطايب الطعام ، وتحب مجالسة الأنام ، وأنها تسترسل معهم في الكلام طليقة النفس واللسان ، وأنها تحسن الغناء واللعب والرقص .. فانه حيثما كان الشرف ، تصير كل هذه التصرفات شريفة .. ثم أنني ان كنت عاطلا من محاسن الجمال ، فلست أتوجس أدنى خشية أو شك من تلك الناحية ، لأنها كانت لها عينان مبصرتان حين اختارتني .. لا ، يا أياجو ، ما أنا بمرتاب حتى أرى . واذا ارتبت ، فلا بد من الأدلة ، فاذا صحت عندي تلك الأدلة ، فيومئذ يكون الوداع الأخير للحب والغيرة معا . »

وعلى الرغم من نبل ذلك التحدي ، لم يعدم أياجو في ذكائه اللماح ، ان قام بحركة التفاف سريعة ردت عطيل — بعد أن تخفف بعض الشيء من شكه — الى موقف الشك الذي كان فيه ، بل أشد أسرا وأضيق خناقا وأحر جمرا ، لدى سماعه أياجو يقول في صوت خفيض :

أياجو : يسرني أن أستمع الى عزمك هذا ، لأنه يتيح لي الفرصة الآن للمزيد من الصراحة في اظهار صداقتي ومبلغ ولائي لك . ولما كان الوقت لم يحن بعد لتقديم الأدلة ، فارقب جيدا ما يكون من الموقف بين امرأتك و « كاسيو » ، ولا تكن غيورا ولا مبالغا في الثقة . فاني لا أحب أن تصبح نفسك النبيلة ضحية سماحتها . وأنا عليم بالاخلاق في بلادي .

عطيل : أصحيح ما تقول ؟

أياجو : أما غشت امرأتك أباها حين زواجها بك ؟ وذلك بعد أن استطاعت وهي في نضرة الصبا ، أن تخفي عن الشيخ ما بها ؟ أما كانت تظهر التحاشي لنظراتك ، وهي أشد ما تكون اشتهاء لك ؟

عطيل : بلى ، هذا حق .

أياجو : مولاي أرى ما قلته قد بلبل خاطرك ؟

عطيل : بعض الشيء .. بل ، أنا على يقين من عفة « ديدمونة » .

أياجو : أطال الله بقاءها وهي كما تعتقد ، وأطال بقاءك على اعتقادك .

عطيل : ومع ذلك ، فالطبيعة قد تغوي ، وتضل السبيل .

أياجو : هذا هو محور الموضوع .. ولكي أكون أكثر صراحة معك ، أقول : ان أمرأة ترفض من تقدم لها من الخطاب العديدين ، وهم من أبناء وطنها ومن لونها ومقامها ، على حين كان الطبيعي قبولهم .. هذه المرأة لا بد أن تكون امرأة غير متزنة ، وأن تكون من طبيعة ذات ميول غير طبيعية .. ولكن ، سامحني ، فما أذكر ذلك لأخصها به . انما أخشى ما أخشاه ، ان تراجع مثل هذه المرأة نفسها ، فتقابل بينك وبين أبناء وطنها ، مقابلة تتصرف على أثرها تصرفا قد يترتب عليه ندمها .

عطيل : استودعك ، واذا لاحظت شيئا آخر ، زدني به علما . والآن ، دعني .

ولولا أن أياجو اللعين ، قد آتاه شكسبير قدرة الشيطان الماكر نفسه ، فتنبه الى أنه لم يعد ليجدي مع تلك الفطرة العربية السليمة النبيلة سوق الكلام المثير وحده ، فهو منذ الساعة يتعداه — بما أوتي من سعة الحيلة وبراعة التدبير — الى تهيئة المشاهد العارضة أو الملفقة التي يمكن التموية بها عليه لاثبات ما يراد اثباته ، بحيث تتوالى واحدة بعد الأخرى على عينيه بسرعة فائقة ، في سلسلة متصلة الحلقات متلاحقة لا تترك بينها ثغرة أو فسحة من الوقت يظهر من خلالها أنها زائفة ..

ولولا أن « أياجو » قد آتاه شكسبير ، نابغة الكتاب الانجليز ، قدرة الشيطان الماكر نفسه ، لما استطاع أن يثير انفعال عطيل من البدايات الصغرى الى تلك الذروة القصوى ، بهذه السرعة المتصاعدة ، على الرغم مما قام في نفس عطيل من عوائق الصراع بين الحب والبغض ، بين العطف والنفور ، بين الغيرة والشعور بوخز الضمير ، بين ما في الطبيعة البشرية من عناصر القوة وعناصر الضعف ، بين تسامي الفكر المحض ولواعج الألم الممض . وأخيرا امتزاج هذه المتناقضات في ذلك العباب العميق الزاخر من الانفعالات التي زادها التضارب والاعتلاج قوة لا نظير لها ، للاندفاع الى الهاوية التي أرادها للبطل العربي ، من كان يسميه حتى آخر لحظة « الصديق النزيه » .

وحسبنا الآن أن نورد مجمل وصف شكسبير للبطل العربي بعد أن عرض في مسرحيته ما للبطل وما عليه ، وذلك بايراد الكلمة التي جاءت في ختام المسرحية ، على لسان « كاسيو » أحد أشخاصها وكان المتهم الأول عند عطيل حتى أصدر عليه الحكم بالموت . قال : « لقد كان رجلا كبير القلب » ■

تفجر المعرفة في عصرنا الحاضر

بقلم الاستاذ فخري قدورة

عصرنا الذي نعيش فيه عصر تطور تتفجر فيه المعرفة بسرعة عظيمة ، ثم لا تلبث أن تستخدم في تطبيقات علمية كثيرة مذهلة كان الناس قبل سنوات قليلة يعتبرونها من ضرب الخيال . فهذا التقدم العلمي الرائع الذي شهدته الانسانية خلال الخمسين سنة الأخيرة يفوق التقدم الذي أحرزته الانسانية منذ بدء التاريخ حتى مطلع القرن العشرين ، على حد قول العلماء . ففي حقل السرعة وقطع المسافات مثلا ظل تقدم الانسان شيئا لا يذكر حتى عام ١٨٣٠م ، عندما بدأ يستعمل الآلة البخارية في القطارات . ثم اخترع السيارة . فالطائرة ، فالسوابر الفضائية التي بلغت سرعتها نحو ٤٠ ألف كيلومتر في الساعة .

فماذا يا ترى سبب هذه الانطلاقة الرائعة في تقدم العلوم النظرية والتطبيقية في عصرنا هذا ؟

كان « أرسطو » ، تلميذ أفلاطون ، من أبرز المفكرين والعلماء في القرن الرابع قبل الميلاد . وقد قام آنذاك بمجهود كبير . فبوّب الأشياء وشرحها في موسوعة كبيرة ، واعتبر التراب والماء والهواء والنار عناصر المادة الرئيسية في هذا الكون . وكان اذا ما سئل عن سبب سقوط حجر الى أسفل ، وسبب تصاعد شرر النار الى أعلى ، يجيب بأن الحجر يسقط ليرجع الى أصله التراب ، أما الشرر فيصعد الى أصله النار . وأصبحت موسوعته مرجعا أساسيا لكل مستفسر ، وزاد من اعتماد الناس على هذه الموسوعة تبني الكنيسة لها ، فأصبح من الصعب مخالفتها ، وأقفل باب البحث والتجربة . وقد بقيت آراء أرسطو سائدة حتى القرون الوسطى ، حين ظهر العلماء العرب . فقد نوّه الفيلسوف العربي « ابن رشد » ، وغيره من العلماء المسلمين ، بأهمية البحوث والتجارب العلمية ، وقد اقتبس هذا عنهم وطبقه فيما بعد بعض علماء الغرب أمثال : « روجر بيكون » ، و « ديكارت » .

لا شك أن الفكرة العلمية المبنية على التجارب العلمية تشكل الأساس الرئيسي الذي اعتمد عليه العلم الحديث في تحقيق هذا التقدم الكبير . وقد تطلب اكتشاف هذه الطريقة ظهور عدد من العباقرة والنابغين .. وان كان تطبيقها لا يتطلب في الواقع عبقرية أو نبوغا ، ولكن عدد العاملين في المختبرات حتى القرن العشرين كان قليلا ، كما أن توفر الأجهزة والأدوات فيها كان نزرا ، والانفاق على التنقيب العلمي كان شحيحا ، مما جعل تأثير العلم في المجتمع آنذاك محدودا .

ثم ما لبث أن تغير الوضع واتسعت رقعة البحث العلمي ، وأخذت الابتكارات والاكتشافات تترى . فخلال الحرب العالمية الأولى طوّر العلماء الطائرة كأداة فعالة في القتال ، واخترعوا الدبابة . وأخذت الحكومات تتلمس ما يستطيع العلم تقديمه من اختراعات تساعد على النصر . فجندت أعدادا متزايدة من العلماء خلال الحرب العالمية الثانية للعمل في التنقيب العلمي الحربي . فكان من أثر ذلك أن ظهرت مخترعات جديدة وأجهزة علمية دقيقة أثبتت فعاليتها وملاءمتها لشتى ظروف القتال . غير أن العلماء لم يقصروا ابتكاراتهم العلمية هذه على الحرب والقتال فحسب ، بل طبقوها أيضا في أغراض السلم التي تعود على المجتمع الانساني بالنفع العميم . وبالاضافة الى ذلك ، شرعوا في ادخال مواد حديثة ، كاللدائن ، تتميز بخواص وصفات لا تتوافر في المواد الطبيعية العادية ، كما وفروا للمجتمع أجهزة وأدوات حديثة لا حصر لها يسرت للانسان انجاز أعماله اليومية ووفرت له الكثير من وسائل المتعة والتعليم والترفيه البريء .

وليس أدل على تطور العلم واتساع رقعته في القرن الحالي من ازدياد عدد العلماء العاملين في هذا الحقل من ١٥ ألف عالم في عام ١٨٦٩ الى نحو ٤٠٠ ألف عالم في عام ١٩٥٤ . ولو اعتبرنا جميع المختصين بالعلوم والذين يعملون في حقول التعليم والصناعة والدوائر الحكومية لارتفع العدد الى نحو مليوني شخص . ومن ناحية أخرى فقد ارتفعت النفقات التي تصرف على العلوم خلال تلك المدة من نحو مليون دولار الى أكثر من خمسة بلايين دولار سنويا . غير أن أبحاث الفضاء ، وما يشملها من صواريخ وأقمار اصطناعية ومحطات فضاء وأجهزة ألكترونية وأبحاث ودراسات ، قد أدت الى رفع هذه المصاريف والنفقات الى آلاف الملايين . ففي عام ١٩٦٥ على سبيل المثال ، خصصت الولايات المتحدة الأمريكية مبلغ ٢١ بليونا من الدولارات لتطوير أبحاث الفضاء . وبالاضافة الى ذلك ، فان التوزيع الجغرافي لمراكز الأبحاث العلمية قد طرأ عليه تغيير واضح خلال النصف الأول من هذا القرن ، ففي نهاية القرن المنصرم كان معظم الأبحاث العلمية محصورا في ألمانيا وبريطانيا وفرنسا . وبحلول الخمسينات من القرن الحالي أصبحت هذه المراكز العلمية ، على الرغم من تطورها وتوسعها ، ثانوية بالنسبة الى مراكز الأبحاث العلمية الجديدة الضخمة في أمريكا وروسيا . كذلك تقدمت بعض الدول الآسيوية في هذا المضمار العلمي كاليابان والهند والصين التي أخذت تسهم فيه اسهاما ملحوظا وتشارك في كثير من الأبحاث والدراسات العلمية .

والظاهرة الثانية التي تميز بها القرن العشرون هي الافادة من حوافز تقدم المعرفة النظرية والاكتشافات العلمية وتسخيرها في تطبيقات عملية نافعة كأجهزة الرادار والتلفزيون وانتاج اللدائن والخيوط الاصطناعية والفيتامينات ، والمضادات الحيوية ، واستخدام الأقمار الاصطناعية في الاتصالات اللاسلكية ، وبث البرامج التلفزيونية ، وتزويد محطات الأرصاد الجوية بمعلومات وافية عن الأحوال الجوية ، بالاضافة الى استخدام الذرة في الأغراض السلمية .

وليست التطبيقات السالفة الذكر الا أمثلة قليلة لتوضيح مبدأ امكانية استخدام العلوم الطبيعية في التغلب على مشاكل الحياة العملية . فالعالم « آينشتاين » مثلا ، صاحب نظرية النسبية ، استنبط معادلته المعروفة التي تقوم على أن الكتلة المادية (ك) غرامات مثلا هي في الواقع طاقة متبلورة قدرها ك × مربع سرعة الضوء بالارجات ، وهذه طاقة هائلة لو أمكن اطلاقها من عقالها دفعة واحدة . وبدأ العلماء التجريبيون

التقدم — السنة ١٨٣٠ ١٩٥٠ ١٩٥٧

أبحاثهم لاطلاق هذه الطاقة الهائلة وتحقق لهم النجاح ، فأوجدوا بذلك مصدرا جديدا للطاقة . وكذلك عرف العلماء نظريا قوانين الحركة والجاذبية ، وحسبوا السرعة التي يجب أن تطلق بها القذائف والصواريخ لتدور في مدار معين حول الأرض أو لتفلت من جاذبية الأرض وتصل الى القمر وتحط على سطحه وتكر راجعة ، أو تستمر في سيرها نحو كوكبي الزهرة والمريخ .. هذا بالاضافة الى الانجازات الهائلة التي حققها العلمـــاء في مختلف فروع المعرفة النظرية والتطبيقية ، حتى أن المرء ليحتار في اختيار الاسم المميز ليطلقه على عصرنا هذا . فهل نسميه عصر الطاقة النووية ؟ أم نسميه عصر الصواريخ وارتياد الفضاء ؟ أم عصر الأدمغة الألكترونية ؟ أم سنسميه قريبا عصر التطور البيولوجي ، اذ أن من المنتظر أن تزداد معرفة الانسان بالخلايا الحية ازديادا كبيرا خلال النصف الثاني من هذا القرن ؟ أما في النصف الأول منه فقد حدث تقدم ملحوظ في حقلي الفيزياء والكيمياء أدى الى نتائج مهمة سيكون لها أثرها الواضح في المجتمع الانساني ، كالتوصل الى مصادر جديدة للطاقة ، والتخلص من الأعمال الروتينية بواسطة الألكترونيات ، وتوفير المزيد من الغذاء والماء العذب واللباس لسكان الأرض ، وارتياد الفضاء بواسطة الصواريخ .

ولا شك أن الانسان في مدينته الحديثة بحاجة الى مصادر للطاقة كافية لادارة دواليب مصانعه وتشغيل وسائل النقل المختلفة وتأمين وسائل الراحة في البيت والمكتب . والتطور الصناعي الذي ظهر في القرن الثامن عشر ، وظهور الآلة البخارية فالآلة الغازية ، فالآلة النافورية فيما بعد ، كل هذه مكنت الانسان من انجاز أعمال تقوم على القوة والجهد . وهذه الآلات المذكورة تستعمل الزيت والفحم كطاقة وقودية لتشغيلها . وبالاضافة الى الزيت والفحم لقد استطاع الانسان السيطرة على الطاقة المتولدة من تفجير الذرة وكبحها واستعمالها في انتاج الكهرباء وتسيير الغواصات .

وبعد تفجير الذرة توصل العلماء الى توليد طاقة تفجيرية هائلة ، وذلك بأن هيأوا الظروف الملائمة ليجعلوا ذرات الهيدروجين الخفيفة تلتحم بعضها ببعض مكونة ذرات أثقل هي ذرات الهيليوم ، فيتولد عنها طاقة كبيرة . ويمثل هذه الطريقة تنتج طاقة الشمس والنجوم . وان ما يحاول العلماء التوصل اليه الآن هو البحث عن طريقة عملية لانتاج هذه الطاقة في المختبر وكبحها بحيث لا يحدث انفجار كبير دفعة واحدة ، وانما تتولد الطاقة وتنبعث بصورة تدريجية مكبوحة يمكن الاستفادة منها عمليا . وهذا ليس بالأمر السهل ، اذ أن ذرات الهيدروجين لا يمكن أن تلتحم الا تحت ضغط كبير وعلى درجة حرارة عالية جدا تصل الى ملايين الدرجات . وفي سبيل ذلك لجأ العلماء الى أبحاث وتجارب مختبرية مكنتهم من توليد درجة حرارة عالية تزيد على المليون درجة في حيز من البروتونات (وهي ذرات هيدروجين انسلخت عنها الكتروناتها) وذلك بامرار تيار كهربائي كبير فيها . ومنعوا البروتونات الساخنة من مس جدار الأنبوب الحاوي لها بأن سلطوا عليها مجالا مغناطيسيا قويا أبعدها عن الجدار وضغطها عند محور الأنبوب الدائري . ولكن ذلك كله حدث خلال فترة قصيرة جدا من الزمن تقاس بجزء من مليون جزء من الثانية .

بيد أن العلماء ماضون حاليا في تجاربهم هذه ليحصلوا على درجات حرارة أعلى ولفترات أطول . وثمة مصدر آخر للطاقة تجري الأبحاث على تطويره هو أشعة الشمس الساقطة على سطح الأرض . فهذه الأشعة في حد ذاتها تشكل طاقة وفيرة يمكن استعمالها في البلدان المشمسة في أغراض مختلفة . فبواسطة مرايا مقعرة كبيرة يمكن تجميع أشعة الشمس وتسليطها على خزانات كبيرة للماء ، فيغلي الماء ويستخدم البخار الناتج لتوليد الكهرباء مثلا .

وتستخدم في الأقمار الاصطناعية بطاريات تحتوي على صفائح من عنصر « السيزيوم » ، فعندما تسقط أشعة الشمس على تلك الصفائح تنطلق منها الكترونات مكونة بذلك تيارا كهربائيا يشغل بدوره الأجهزة التابعة لتلك الأقمار . وهذا النوع من البطاريات رخيص التكاليف ولا يحتاج الى تعبئة . وهناك بطاريات تنتج الطاقة عن اتخاذ غازي الأكسجين والهيدروجين اللذين يتولدان نتيجة امرار تيار كهربائي في حامض الكبريتيك المخفف .

ومن ناحية أخرى ، شهد القرن العشرين الكثير من الأبحاث التي تهدف الى تخليص الانسان من الأعمال الروتينية الرتيبة . وفي سبيل ذلك ابتكرت الأجهزة الألكترونية العديدة التي استعملت في كثير من مجالات الحياة ومناحيها . وهناك العقول الألكترونية التي أخذت تستعمل في مجالات الزراعة والصناعة على نطاق واسع ، وقريبا سيأتي اليوم الذي تستعمل فيه بجانب أستاذ المدرسة في تلقين التلاميذ المعلومات بسرعة تتناسب مع امكانات كل منهم بصورة فردية .

ولننتقل الآن الى المشكلة العالمية التي أثارها « توماس مالثوس » في عام ١٧٩٨ ، وهي « مشكلة تزايد السكان والغذاء » . فالانتاج الزراعي يتناسب طرديا مع المساحات المزروعة ، على فرض عدم زيادة الفعالية ، فهو يتزايد حسب

ما يسميه العلماء الرياضيون « متسلسلة حسابية » في حين أن عدد سكان العالم يتزايد حسب « متسلسلة هندسية » ، والتزايد الهندسي أكبر من التزايد الحسابي . وقد ساعد العلم الحديث ، بمكافحته الفعالة للآفات والأمراض ، على تزايد عدد سكان العالم بمعدل لم يعرف له التاريخ مثيلا من قبل . فسكان العالم كانوا في سنة ١٩٥٠ نحو ٣٠٠٠ مليون نسمة . وعلى معدل الزيادة الحالي ينتظر أن يرتفع هذا التعداد الى أكثر من ٦٠٠٠ مليون نسمة في عام ٢٠٠٠ ، وفي عام ٢٠٥٠ يصبح عدد سكان العالم أكثر من ١٢٠٠٠ مليون ، ولن تمضي بضع مئات من السنين الا وتصبح الأرض اليابسة مكتظة بالسكان .

ان نحو ١٠ في المائة من مساحة اليابسة مستغل حاليا في الزراعة ، و ١٧ في المائة تشكل مراع للمواشي ، و ٢٨ في المائة غابات ، أما المساحة الباقية من اليابسة فتشمل الصحاري والمستنقعات والجبال والأراضي البور غير الصالحة للزراعة . ولمجابهة هذه المشكلة الخطيرة لا بد أولا من زيادة معدل الانتاج للدونم الواحد من الأرض . وذلك عن طريق استعمال أنواع محسنة من البذور واستخدام الأسمدة والمبيدات الحشرية . ومكافحة أمراض الماشية ، وثانيا من استصلاح الأراضي غير المستغلة وتحويل الصحاري الى أراض زراعية بتوفير الماء ووسائل الري لها .

ان كثيرا من الصحاري الشاسعة قريبة من مياه البحار والمحيطات ، غير أن ملوحة هذه المياه تحول دون استخدامها في ري هذه المساحات الصحراوية الشاسعة واحالتها الى أراض زراعية منتجة . فالعلماء توصلوا الى طرق متعددة لتحلية مياه البحر . وبفضل جهود العلماء أصبح بالامكان توليد الكهرباء بالطاقة الذرية ، كما أصبح بالامكان استخدام الحرارة الناتجة عن هذه الطاقة في غلي الماء وتوليد البخار اللازم لتشغيل المولدات . ويمكن تكثيف البخار وتحويله الى ماء صالح للري . والأبحاث جارية الآن لتطوير هذه الطريقة الحيوية الكفيلة بتحويل الكثير من المساحات الصحراوية الى أراض منتجة.

وقد أقامت المملكة العربية السعودية معملا لتحلية مياه البحر في جدة ، بالاضافة الى معمل آخر يجري العمل على انشائه في المنطقة الشرقية من المملكة .

هذا ويتطلع العلماء اليوم الى استغلال ثروات البحار والمحيطات واحالتها الى مصادر غذائية جديدة تكفي لسد حاجة السكان من الطعام . كما يعمد العلماء الى انتاج أغذية اصطناعية غنية بالبروتين من البترول والغاز الطبيعي ، وبذلك يغدو من الممكن التغلب على مشكلة زيادة السكان وتوفير الغذاء والماء لهم .

ولننتقل الآن الى التقدم البيولوجي الذي أحرزه الانسان خلال النصف الثاني من هذا القرن . لقد تقدم الطب والجراحة تقدما ملحوظا ، فأصبح بالامكان استبدال بعض الأعضاء المعتلة في جسم الانسان بأعضاء أخرى سليمة من جسم آخر أو بمواد يصنعها الانسان . فعلى سبيل المثال ، أمكن بواسطة عمليات جراحية اعادة البصر الى كثير من الأشخاص كانوا على قاب قوسين أو أدنى من العمى . كما لجأ أطباء الجراحة الى استعمال أنابيب خاصة من اللدائن لتحل محل الأجزاء المعتلة من الأمعاء والقصبة الهوائية . كما ثبتوا في القلب صمامات اصطناعية أو طبيعية مأخوذة من قلوب بعض الحيوانات لتنظيم نبضاته ، وزرعت كلى سليمة في الجسم لتحل محل كلى معتلة بالاضافة الى نقل القلوب والرئات وزرعها في جسم الانسان . غير أن الصعوبة التي يواجهها العلم في هذا المجال هي في مقاومة الجسم لها وعدم تقبلها أحيانا . وذلك لأن الجسم يفرز مواد مضادة تهاجم العضو الغريب وتقضي عليه .

كذلك تقدمت صناعة الأدوية والعقاقير الطبية الفعالة . فبعد أن كانت هذه العقاقير تحضر نتيجة للتجارب فقط ، أصبح العلماء يهندسون جزئيات الأدوية التركيبية بحيث تبدو للجراثيم والميكروبات وكأنها أجزاء طبيعية من خلايا الجسم فتقبل عليها لتتغذى عليها فتموت .

ومن الأمراض المستعصية التي يجري عليها الآن أبحاث كثيرة لتفهم طبيعتها مرض السرطان الخبيث . ويؤكد العلماء أن العلاج الناجع لهذا المرض الخبيث يكمن في زيادة تفهمهم للخلية الحية . ومن الأبحاث التي يقوم بها العلماء على الخلية هي أن « الجينات — Genes » في الخلية تتكون من جزئيات معقدة من مادة حمضية تسمى « ديوكسي ريبونيوكليك — Deoxy Ribonucleic Acid » وان كل جزىء من هذه الجزيئات يتكون من عشرات الألوف من ذرات عناصر الهيدروجين والنيتروجين والأكسجين والكربون والفسفور ، وان نسبة كل من هذه العناصر وكيفية ترتيب الذرات في الجزىء بالاضافة الى كيفية ترتيب الجزيئات في الجين ، كل ذلك يقرر رسالة الوراثة التي يحملها الجين ، وان تغيير وضع ذرة واحدة من تلك الذرات قد يغير تلك الرسالة تغيرا كاملا .

وقد تمكن العلماء من تغيير الجينات عمليا في عدد من الكائنات الحية — مثل ذبابة الفواكه — بتعريضها للأشعة السينية « أشعة اكس » أو للاشعاعات الصادرة عن بعض المواد المشعة ذاتيا . ونتيجة لتلك الاشعاعات يتغير كل النسل ، ويكون التغير في بعض الأحيان أساسيا ، فقد يصبح النسل بدون شعر بالمرة أو بشعر كثيف ، وقد يصبح عدد الأرجل أكثر أو أقل ، وقد يحدث تغير في شكل الجسم . وهذه التغيرات تسمى « تحولات — Mutations » وأغلبها قتال للنسل الجديد . وقد اختيرت ذبابة الفواكه لهذه التجارب لأنها تتوالد وتنمو بسرعة ، ولأن اجراء التجارب عليها عملية سهلة . وبسبب تأثير الاشعاعات على الخلايا فان العلماء حذروا من زيادة الاشعاعات الناتجة عن تفجير الذرة عند حد معين في جو الأرض ، كما انهم حذروا من استعمال الأشعة السينية على الجسم أكثر مما يجب .

هذا ، وقد تمكن العلماء مؤخرا من تركيب جزئ المادة الحمضية « الديوكسي ريبونيوكليك » في المختبر ، وهم يأملون في استخدامها في المستقبل لتصحيح بعض النقائص الوراثية في جينات الخلايا ، وذلك باعطائها المواد الضرورية واطلاقها في الجسم لتزود الجينات بما ينقصها من هذه المواد . وبهذه الطريقة ربما يتغلب الطب على كثير من الأمراض الوراثية المستعصية ، وايجاد العلاجات الناجعة لها .

هذا ، وقد أخذ العلماء يتفهمون كنه عملية التعلم والذاكرة تفهما يزداد بالأبحاث والتجارب . وأصبح من المسلم به أننا في الواقع لا ننسى شيئا . فكل شيء سبق لك أن تعلمته أو قمت به يخزن في دماغك . على الرغم من أنك قد لا تستطيع في هذه اللحظة سرد تفاصيل ما قمت به في يوم معين من سنة معينة . ويمكن استخلاص المعلومات المختزنة في الدماغ بطريقة التحريض الكهربائي . وهذه الحقيقة تترتب عليها امكانيات هائلة في تطوير عملية التعلم . فاذا نجح العلماء في التوصل الى طريقة عملية لخزن المعلومات في الدماغ أثناء النوم فان حشو الأدمغة أثناء النهار يصبح مضيعة لوقت ثمين .

وهكذا فان التطور السريع في الأبحاث العلمية التطبيقية قد وضع في يد الانسان قوى هائلة هي في ازدياد مطرّد يوما عن يوم ■

ملك الشهور

للمغفور له الامير أمين آل ناصر الدين

ملك الشهور تحية وسلام   ان الملوك على الورى لكرام
أقبلت تبسم والشهور عوابس   لله أنت وثغرك البسام
وبرزت مختالا يحفك فيلق   ملأت كتائبه الفضاء لهام
صعداته قضب الأراك عواسلا   ومن السنابل للرماة سهام
وله من الأثلاث خضر مضارب   حمر الشقائق بينها أعلام
الأرض توشك فيك من خيلائها   أن تغتدي وسهولها آكام
وتكاد تثني عطفها رأد الضحى   طربا كما هز الرداح غرام
ولصدر كل بنانة مطلولة   من وردها الدفر الأريج وسام
وكأنما فرش الصعيد نمارقا   في نسجها الاتقان والاحكام
والدوح ملتف الغصون كأنما   نصبت من الديباج ثم خيام
عشق النسيم الملد من أغصانه   فهبوبه عند الأصيل هيام
والماء تحببه لفرط صفائه   قد ذاب فيه البدر وهو تمام
متلألئ بين النبات كأنه   سيف تهتك غمده صمصام
واذا استجم بحيث تنفحه الصبا   أبصرت ما لم يغن فيه كلام
واذا تموجت المروج تخالها   بحرا لطامي الموج فيه صدام
يعلوه ملتمع السراب ظهيرة   فكأنما فوق المياه ضرام
تبدو الطبيعة فيك وهي كأنها   نشوى وما غير الشعاع مدام
تتوزع الايقاظ فيك مسرة   ملء القلوب ويهنأ النوام
نظرت اليك الشمس نظرة وامق   ما ان له الا اللقاء مرام
ففتنتها بالحسن حتى أوشكت   أن لا تسير فلا يكون لتام
وتكاد تقيك المجرة ماءها   ان ضن بالسقيا عليك غمام
أيار قد ذكرتني عهدا مضى   والعيش غض والحياة جمام
أيام أجمع بردتي على فتى   بسمت له الأيام والأعوام
عهد أحن اليه ملتاعا كما   باتت تحن الى الهديل حمام
وتجد بي ذكراه في جنح الدجى   فالسهد حل والرقاد حرام
لاح المشيب بلمتي متلألئا   فكأنه فجر علاه ظلام
عظة يدل المرء معناها على   أن الحياة وان تطل أحلام
ما كنت أعلم قبل أن ذهب الصبى   بهنائه ان المنى أوهام
ولقد جفا طبعي القريض كأنما   بين الشبيبة والقريض ذمام
أدعو قوافيه فتنفر مثلما   نفرت لدى قناصها الآرام
لا شعر الا ماجلا أبكاره   طرب الشباب وزفها الالهام
فاذا نظمت فان ذاك تعلة   لم يرض عنها الطرس والأقلام
واذا دعيت اليه قلت لمن دعا   ذهب الصبى فعلى القريض سلام



احدى سيارات « الكونورث » الضخمة التي تستخدمها أرامكو لنقل الوقود والماء والمعدات الى مخيمات التنقيب عن الزيت عبر الصحراء ، وتبدو هنا أثناء انطلاقها عابرة وسط الرمال ..

تصوير :
عبد اللطيف يوسف

تطوّر صناعة النقل بالشاحنات

عمّت صناعة النقل بالسيارات على نطاق واسع في مطلع هذا القرن . لتصبح في العقدين الأخيرين منه من أهم عوامل الاقتصاد الوطني والعالمي . ومردّ ذلك الى النهضة الصناعية التي تطبع عصرنا هذا ، والتي تؤثر على شتى بلدان العالم بشكل يختلف في بلد ما عنه في بلد آخر تبعا لاختلاف الظروف الصناعية والاقتصادية لكل بلد . فقد نجم عن هذه النهضة اختراع العديد من المنتجات الصناعية التي غدا توزيعها بشكل سريع وفعال . في عالم يتزايد عدد سكانه ويرتفع مستوى الحياة فيه باستمرار . أمرا على غاية كبيرة من الأهمية . وبالاضافة الى ذلك فان الطلب المطرد الزيادة على المواد الاستهلاكية ، وتنوع هذه المواد ، وتفاوت المسافات التي تنقل عبرها، أمور تجعل من صناعة النقل صناعة أساسية على الصعيدين المحلي والعالمي .

وتشكل المواد التامة الصنع أو نصف المصنعة جزءا صغيرا مما تعتمد عليه صناعة النقل العالمية ، في حين تشكل المواد الخام ، كالزيت واللدائن والمواد الكيماوية ، الجزء الأعظم مما تعتمد عليه . وقد أصبحت هذه المواد على غاية كبيرة من الأهمية لازدياد الطلب عليها في شتى أقطار العالم . ولأن التقدم التكنولوجي كشف النقاب عن خصائص جديدة لهذه المواد ، الأمر الذي نجم عنه توسع كبير في استعمالها . وقد أدى هذا بدوره الى تطوير كبير في مجالات نقل هذه المواد ، كظهور العربات ذات الاستعمال الخاص الى حيز الوجود .

لقد اعتمدت التجارة على النقل البحري والبري بشكل رئيسي . وكثيرا ما كانت تلتقي وسائل النقل البري والبحري في المرفيء المنتشرة على شواطيء البحار . ولكن لم تكن تجمع بينها أية صلات أو روابط .

بيد أن النظرة الى النقل بالسيارات قد تغيرت هذه الأيام ، وخصوصا فيما يتعلق بالنقل بين قارة أوروبا والجزر المجاورة لها . فقد أصبح بالامكان أن تعبر سيارات النقل البحار بواسطة « معديات » يتزايد عددها باستمرار ، مما يوفر الوقت والجهد اللازمين لتخليص البضائع في مرافيء النقل البحري . هذا بالاضافة الى الأنفاق التي يمكن أن تحفر تحت قيعان البحار لتسهيل مرور سيارات النقل عبرها . وقد تطور فن بناء

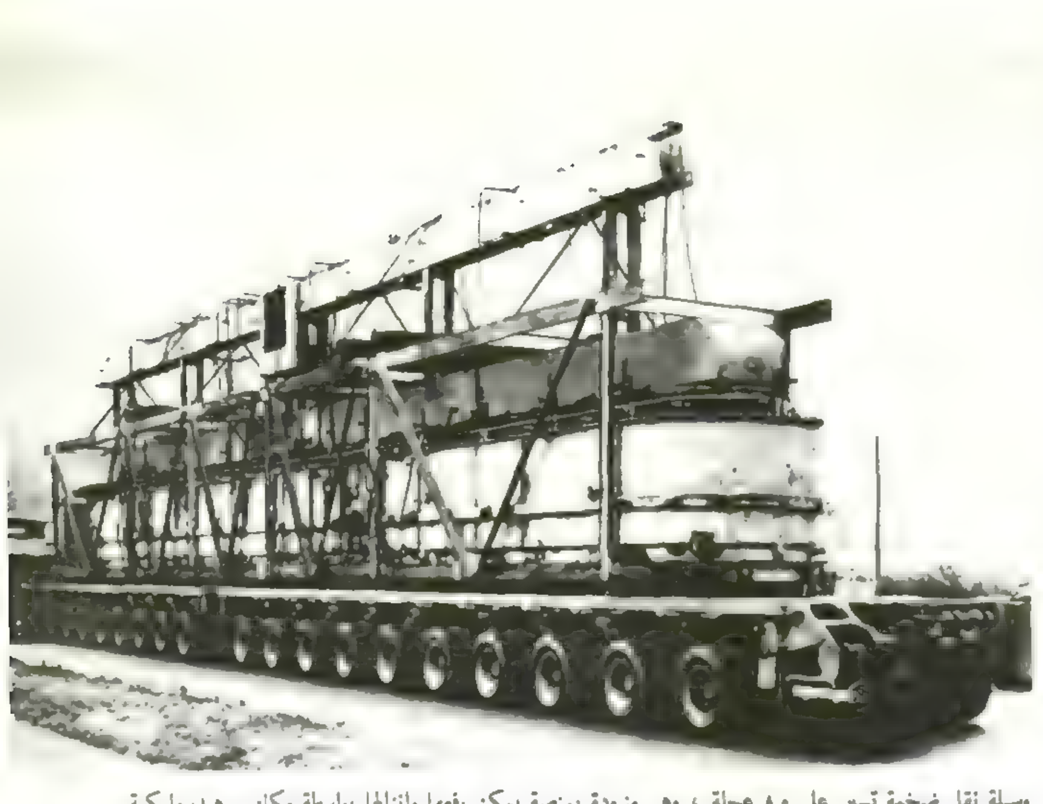
الطرق الى حد أصبحت معه طرق كثير من البلدان تشكل امتدادا طبيعيا لطرق البلدان الأخرى المجاورة ، مما سيؤثر بشكل فعال على النقل عبر هذه البلدان ، ومنها واليها . ويشكل النقل البري نسبة كبيرة من وسائل النقل في البلدان المتقدمة صناعيا ، وتبلغ هذه النسبة أعلاها في كل من ايطاليا وبريطانيا حيث يتم نقل ٩٠ في المائة من المواد والبضائع بواسطة سيارات النقل . ومن أهم ميزات أي نظام نقل فعال هو أنه يجب أن يضمن تحقيق الغرض الذي وضع من أجله ، دون التعرض لأية صعوبات ذات طابع خاص .

كما يجب أن تتوفر في مثل هذا النظام ميزات أخرى لا تقل أهمية عن ذلك ، كسرعة حركة البضائع ، وقلة تكاليفها ، وصلاحيته للتخطيط والتطوير . ومهما يكن الأمر فان صناعة النقل هذه الأيام أصبحت صناعة أساسية أكثر منها في أي وقت مضى .

تقدم صناعة النقل بالسيارات

أصبح من المعروف أنه كلما ازدادت منتجات أحد البلدان وتنوعت وارتفعت قيمتها وتحسنت صفاتها دعت الحاجة الى ايجاد وسيلة فعالة في ذلك البلد لتوزيع هذه المنتجات . ولا يسد النقل بالسيارات حاجة سكان المدن فقط الى مثل هذه المنتجات ، بل ويعتمد عليه أيضا في توزيعها في المناطق النائية ، اذ يؤمن أسلوب النقل هذا سرعة الحركة ومرونتها ، بحيث أصبح من الممكن ايصال البضائع المعرضة للتلف الى مستهلكيها وهي في حالة جيدة .

ويتميز عالم الصناعة اليوم بتقدم أسلوب الانتاج بالجملة الذي يعتمد على نظام تعديد المصانع . ففي كثير من الحالات يتم صنع جزء أو أجزاء من منتوج ما في مصنع ، ويتم صنع بقية أجزائه في مصنع آخر أو أكثر ، وهذا بدوره يقتضي تأمين نظام نقل فعال وسريع بغية تأمين تكامل عمل هذه المصانع . وينطبق هذا على منتجات مواد البناء وصناعة المحركات وصناعات أخرى كثيرة . فمن الملاحظ مثلا ، أن السيارات حديثة الصنع تنقل بواسطة عربات نقل خاصة ، في حين تقتضي صناعة البناء نقل مواد البناء في عربات من نوع مختلف .. هذا بالاضافة الى ما تحتاجه هاتان الصناعتان من السيارات الاعتيادية المتعددة الأغراض . لهذا فانه يتضح أن هنالك ارتباطا وثيقا بين التصنيع والنقل في المجتمعات



وسيلة نقل ضخمة تسير على ٨٠ عجلة ، وهي مزودة بمنصة يمكن رفعها وانزالها بواسطة مكابس هيدروليكية .

هذا العمود الضخم الذي أضافته أرامكو الى وحدة قطف الخام برأس تنورة لرفع الطاقة على الانتاج ، تطلب نقله استخدام هذه الشاحنة الضخمة التابعة للتابلاين . تصوير : عبد اللطيف يوسف



المتقدمة صناعيا ، اذ أن كلا من هذين المجالين يكاد يعتمد على الآخر تمام الاعتماد .

وحري بالذكر أن النقل بالسيارات آخذ في التزايد في الحقبة الحاضرة ، ففي بلدان السوق الأوروبية المشتركة مثلا تشكل البضائع التي تنقل بالسيارات ثلث مجموع البضائع التي يتم نقلها بشتى وسائل النقل المعروفة . أما في بريطانيا فانها تشكل ٦٣ في المائة من مجموع البضائع المنقولة ، في حين لا تزيد في بلدان أوروبا الشرقية على ١٢ في المائة .

ومما تجدر ملاحظته في هذا المجال أنه بالرغم من أهمية دور وسائل النقل العامة فان الكثير من المؤسسات الصناعية تملك أساطيل نقل خاصة بها ، الأمر الذي يؤثر على أسلوب النقل برمته ، اذ يقتضي أن تكون متطلبات المؤسسات الصناعية فيما يتعلق بالنقل ميالة باستمرار الى المزيد من التخصص .

بيد أنه لا مناص من الاعتراف بأهمية دور مؤسسات النقل الصغيرة .. فانه مع ظهور مؤسسات كبيرة للنقل يميل أغلب صغار المشتغلين بهذه الصناعة الى الاندماج فيما بينهم في مؤسسات أكبر ، ومع ذلك فان البقية الباقية منهم تثبت وجودها بطريقة أو أخرى ، وتستمر في عملها وتقدمها .

ومهما يكن الأمر فانه يجب القاء مزيد من الضوء على الخطوات التي يجب اتباعها لتطوير حركة البضائع العالمية ، لأنها تمثل جزءا مهما في الوضع الاقتصادي العالمي .

تنوع سيارات النقل

يعتبر من الحكمة في كثير من مجالات الصناعة الثقيلة أن يقتصر الانتاج على أصناف من المعدات والآلات الصناعية محدودة العدد من حيث تنوعها ، وذلك لأسباب اقتصادية . وينطبق هذا على صناعة سيارات النقل ، وان كانت بعض مصانع السيارات تنتج عددا كبيرا من الأصناف التي تختلف أغراض استعمالها .

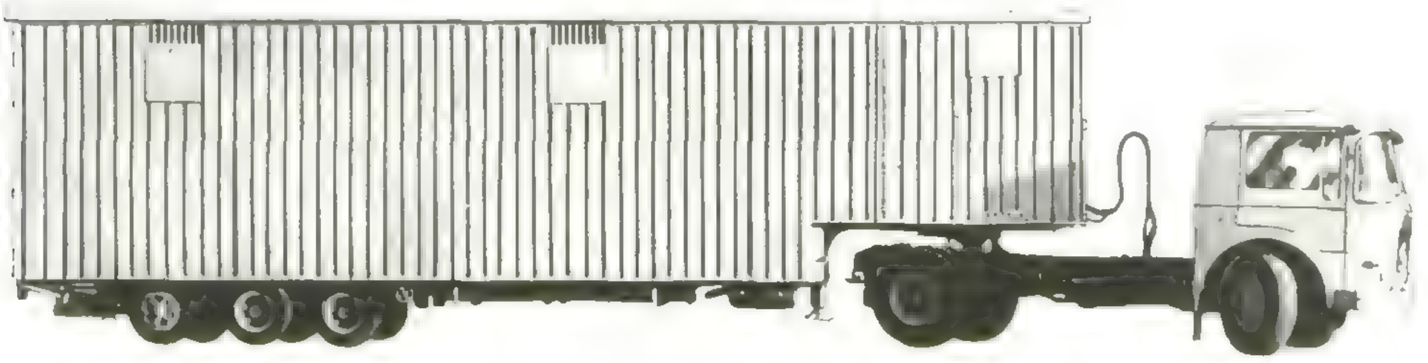
وقد أخذت صناعة النقل بالسيارات تتجه الى التخصص في الفترة الحاضرة ، وذلك تبعا لتنوع المنتجات التي تنقلها . ويطلب كثيرون من المشتغلين بهذه الصناعة سيارات ذات أغراض خاصة من الفئات متوسطة الحجم أو الفئات الضخمة . لذلك فان مصانع السيارات تحاول تنويع خصائص سياراتها من هذه الفئات لتتمكن من مواجهة مثل هذا الطلب .

ولعل من أهم العوامل التي تستدعي التخصص في هذا المجال نوع البضاعة التي يراد نقلها . فمثلا تقتضي عمليات نقل المواد الغذائية تخطيطا سليما ، ومعرفة فائقة بأساليب اللف والتعليب ، وإلماما كبيرا بطرق مناولة هذه البضائع ، وعلى ضوء ذلك يجري تحديد أشكال السيارات التي ستنقل هذه البضائع وحجومها وخصائصها . ومن ناحية أخرى فان معرفة المجال الذي ستستخدم سيارة النقل فيه تؤدي الى وضع تصميمات مناسبة تستدعي اضافة خصائص معينة فيها . كتزويدها بمعدات التحميل والتفريغ ، وأجهزة التبريد ، وغيرها . كما ان ذلك يتيح لأصحاب البضاعة المنقولة أن يطبقوا ، لفترة طويلة ، أساليب التعبئة والنقل التي يريدون اتباعها . ويفضل أصحاب سيارات النقل ومشغلوها أن ينقلوا بضائع زبائنهم بأسهل الطرق التي تضمن سرعة الحركة لسياراتهم ، لأن ذلك بالغ الأهمية بالنسبة اليهم .

على أن شركات النقل الكبيرة التي تعمل في نقل أصناف متنوعة من البضائع والسلع تواجه مشكلات عديدة قد تنجم عن ذلك .. اذ قد تنقل هذه الشركات في يوم ما مواد غذائية مثلا ، ومعدات ثقيلة في يوم آخر ، وغيرها في يوم ثالث ، وهكذا . لذلك كان لا بد لصناعة السيارات من أن تمد مثل هذه الشركات بأصناف مختلفة من سيارات النقل تتلاءم وظروف عملها هذه . ويستلزم هذا كله أن تكون صناعة النقل اجمالا على درجة كبيرة من الفعالية لمواجهة ظروف عملها بما يتلاءم ووضع الزبائن من جهة ، ومصلحة شركات النقل ذاتها من جهة أخرى .

ومن الجدير بالذكر أن النقل بالسيارات آخذ بالاطراد في بلدان مختلفة من العالم حيث يستمر التزايد في الطلب على السيارات ذات المحركات الضخمة التي تؤمن نقل كميات كبيرة من البضائع عبر مسافات طويلة وخلال أوقات محدودة ، الا أن مصممي سيارات النقل الحديثة يضعون في اعتبارهم هذه الأيام تخفيض قوة المحرك ورفع طاقة التحميل ، وذلك لضمان أقصى فائدة من السيارات التي يصممونها . وتشير جميع الدلائل الى أن فكرة استعمال سيارة نقل متعددة الأغراض ستكون الفكرة المفضلة خلال هذه الفترة ، وذلك لمرونة أدوات التحميل والتفريغ فيها ، ولكونها صالحة لنقل عدد غير محدود من مختلف أصناف السلع والبضائع . ويفضل من بين السيارات المتعددة الأغراض ، السيارة الجرارة التي يمكن أن تجر عربات محملة بالبضائع فتوصلها الى الجهة المقصودة أو الى حيث تجرها جرارات أخرى الى تلك الجهة لتمكين الجرارات الأولى من العودة الى نقطة البداية بأسرع وقت ممكن .

هذا ويهتم المعنيون بصناعة النقل هذه الأيام بسيارات النقل الثقيلة التي سيكون من شأنها تحميل كميات كبيرة من البضاعة ، وخصوصا



شاحنة شبه مقطورة صممت لنقل الحيوانات المستخدمة في مهرجانات « السيرك » .

على الصعيد الخارجي حيث توجد طرق جيدة صالحة لسير هذه السيارات عليها .

ويتحدد حجم سيارات النقل تبعا لظروف كثيرة أهمها كمية البضاعة المنقولة ، وأطوال الطرق التي ستسير عليها السيارات وقوانين السير . وتختلف هذه الظروف بين بلد وآخر .

ومن الملاحظ في مجال النقل بالسيارات أن الاتجاه الى نقل البضائع وشحنها في أقفاص من المعدن أو اللدائن آخذ بالنمو . وقد استعملت هذه الأقفاص التي على شكل صناديق ، ولا تزال ، في مجال النقل بالسيارات منذ سنين عديدة ، وتستعمل الرافعات في تحميلها وتنزيلها . ويتم ذلك بسهولة فائقة الا في حالات نادرة ، كأن يتعدى وزن القفص طاقة رافعة السيارة التي تنقله مثلا . ومن أنواع الأقفاص العملية التي يتزايد استعمالها باستمرار نوع يشبه الصندوق الى حد ما الا أنه بدون عجلات ، ولكن من السهل تركيب عجلات له وقطره بسيارة النقل . ولعل من أهم ميزات هذا النوع من أقفاص الشحن عدم الحاجة الى الرافعات لتحميله أو تنزيله . وتختلف النظرة الى أقفاص النقل هذه بين بلد وآخر ، كما تختلف تبعا لظروف استعمالها ، غير أنه كلما كبر حجم القفص كان اقتصاديا أكثر . وتساعد المنصات القابلة للثني أو القلب والمكابس الهيدروليكية على استعمال الأقفاص بسرعة معقولة وفي ظروف سلامة مناسبة.

ونتيجة للدور الهام الذي تلعبه أقفاص الشحن في مجال النقل ، فان هنالك اتجاها الى تقنين حجومها عالميا . وقد نتج عن الدراسات التي أجرتها منظمة القياسات العالمية « International Standards Organization » بالتعاون مع المعنيين بصناعة أقفاص الشحن تقنين مقاييس نوعين من هذه الأقفاص ، أبعاد الأول منهما ٢,٣٤×٢,٣٤ من المتر وأبعاد الثاني ٢,١×٢,١ من المتر . وبالاضافة الى هذين النوعين من الأقفاص توجد هنالك أنواع كثيرة ذات مقاييس مختلفة وأوزان متفاوتة لتختار كل جهة ما يناسبها منها . ومن البديهي أنه كلما قل وزن القفص كان أفضل للشحن وأنسب . ولذلك فان الأقفاص المصنوعة من الألومينيوم واللدائن مرغوبة أكثر من غيرها ، خصوصا وانها تكاد لا تحتاج الى صيانة . وقد غدت الأقفاص المصنوعة من اللدائن رائجة بعد أن جرى تقويتها بالألياف الزجاجية الاصطناعية . وتصلح الأنواع ذات الجدران العازلة منها لنقل المواد الغذائية . وثمة



جانب من « الأوتوستراد » الضخم الذي تم بناؤه بين مدينتي بولونا وفلورنس في ايطاليا .

يستخدم هذا النوع من الشاحنات في نقل البضائع والمعلبات بين المدن ، وقد جرى تصميمه على هذا النحو بغية السرعة في النقل والاقتصاد في الكلفة ..



احدى الشاحنات الخاصة بنقل البضائع عبر المسافات الطويلة .. وهي مزودة بطربينات تعمل بالغاز . وبمقارنتها بالسيارات الصغيرة المحاذية لها تظهر ضخامتها ومدى طولها ..





عربة مقطورة ضخمة خاصة بنقل المعدات الثقيلة يبلغ وزنها ٨٠ طنا ، وتستطيع أن تحمل ٣٠٠ طن .. وهي مزودة بثماني وأربعين عجلة .



تتطلب عملية نقل أبراج حفر آبار الزيت من منطقة الى أخرى استخدام نوع خاص من سيارات « الكونورث » الضخمة كالتي تبدو هنا في الصورة .

تصوير : عبد اللطيف يوسف

أسلوب للتبريد جديد يختلف عن أسلوب التبريد الميكانيكي المعروف ، وهو يعتمد على رش سائل النيتروجين البارد في أقفاص الشحن ، وبعد قليل يتحوّل هذا السائل الى غاز بارد يحفظ المواد الغذائية المنقولة . ومن المنتظر أن يروج استعمال اللدائن في مجال صنع الأقفاص في المستقبل ويعتمد ذلك على مدى التقدم التكنولوجي الذي يمكن احرازه في هذا المجال . أما فيما يختص بنقل السوائل والمساحيق في أوعية من اللدائن فان ذلك يبدو عمليا ومرغوبا ، وخصوصا بعد ظهور أصناف من الأوعية المخصصة لنقل مثل هذه المواد ، مما يمكن طيه بعد تفريغه بحيث يحتل مكانا محدودا في الشاحنة .

سيّارات النقل والتقدّم التكنولوجي

تدخل المنجزات التكنولوجية الحديثة في صنع سيارات النقل بشكل واسع ، ولا يمكن لهذه المنجزات أن تكون مقننة ، لأن المتطلبات التجارية للشاحنات تختلف من بلد الى آخر باختلاف ضروب استعمال السيارات ، بيد أنه من المؤكد أن تنجم عن ذلك مشكلات تكنولوجية أهم أسبابها نمو صناعة النقل بالسيارات والمنافسة بينها وبين غيرها من صناعات النقل .

وتبعا للنمو العام الذي أحرزته هذه الصناعة فان طاقة محركات سيارات النقل آخذة بالارتفاع، اذ تبلغ في السيارات الثقيلة بين ١٥٠ و ٢٠٠ حصان ميكانيكي ، وينتظر أن تصل في المستقبل الى نحو ٢٥٠ حصانا ميكانيكيا ، وذلك نتيجة للتوسع في استعمال أسلوب الشحن « التوربيني » والحقن المباشر للوقود .

وقد ثبت للمشتغلين والمهندسين الميكانيكيين أن المحركات التي تعتمد على حقن الديزل المباشر تعطي قوة أكبر مما تعطيه المحركات التي تعتمد على أسلوب الحقن غير المباشر ، كما أن استهلاكها للوقود أقل . ويستعمل أسلوب الحقن المباشر حاليا في المحركات الكبيرة التي تبلغ طاقتها حوالي ٢٠٠ حصان ميكانيكي .

ومع أن المحركات المستقيمة شائعة الاستعمال ، الا أن محركات جديدة على شكل الرقم (٧) آخذة بالظهور تدريجيا ، وهي محركات محكمة ، وقد ثبت بالخبرة أنه يمكن زيادة طاقة المحرك وتخفيض وزنه باتباع تصميمات تقنية حديثة واستعمال مواد خفيفة الوزن وقوية في صنعه . ويزداد الطلب هذه الأيام على المحركات التي تحافظ على العزم الآلي فيها مرتفعا أثناء دورانها على السرعة البطيئة . وقد تم نتيجة لتعاون نخبة من الخبراء البريطانيين والألمان تطوير محرك من هذا الصنف يعتبر محاولة جادة في سبيل الوصول الى محرك ذي طاقة ثابتة مهما اختلفت سرعة دورانه .

على أن التغييرات الأساسية في المحركات وأجهزة التبديل تقل كثيرا عن التغييرات الثانوية ذات الطابع الهندسي . ويشذ عن هذه القاعدة محرك « وانكل » المحوري (Wankel Rotary Engine) الذي يجري تجربيه في الشاحنات والمعدات الخفيفة ، وكذلك المحرك الطوربيني الذي يدار بالغاز ، والذي أثبتت تجربته أنه ربما يكون عمليا ، وخصوصا في المعدات التي تقتضي استعمال محركات ذات قوة عالية .

وتستلزم الشاحنات والمعدات الثقيلة أجهزة تبديل وتعليق أقوى ، على أن يكون ذلك دون زيادة



نموذج لاحدى شاحنات الغد التي يجري العمل على بنائها والتي سيتم تزويدها بطربينين لتشغيلها ..

في الوزن ، وقد ساعد على تحقيق ذلك العكوف على دراسة اقتصاديات المواد التي تصنع منها هذه الأجهزة والأساليب العلمية المتبعة في صنعها . وشملت الأبحاث العلمية المستمرة أيضا تطوير أجهزة الفرامل والتحكم في تصريف الدخان وكفاءة السائقين والمشغلين ومعدات السلامة وغير ذلك .

وتهدف التحسينات الكثيرة التي يجري ادخالها على شاحنات النقل الى اتاحة الفرصة لسائقي الشاحنات أن يعملوا في جو مريح وأمين . ويعرف العلم الذي يعنى بذلك بعلم الارجونوميكا « Ergonomics » وهو علم يجمع بين المعرفة البيولوجية للانسان وحاجاته ، وبين التطبيق الهندسي لذلك على الأماكن التي يستعملها أو يقيم فيها . هذا بالاضافة الى التحسينات التي يجري ادخالها على صناعة عجلات الشاحنات ، وعدم ترجرجها ، والتقليل من حدة الضجيج الناجم عن محركاتها ، وسلامة سياقة السيارات عموما .

ولعل الدراسات التي تجرى على زيوت تشحيم السيارات بغية تحسينها وتطويرها من أهم ما حققته هذه الصناعة وتسعى لتحقيقه . ولم تغفل الأبحاث العلمية مجال صيانة الشاحنات ، فطورت العديد من أجهزة الاختبار وأدواته وأساليبه ، حتى ان العديد من ورش الصيانة أصبحت تختص في مجال محدود من مجالات الصيانة المتعددة .

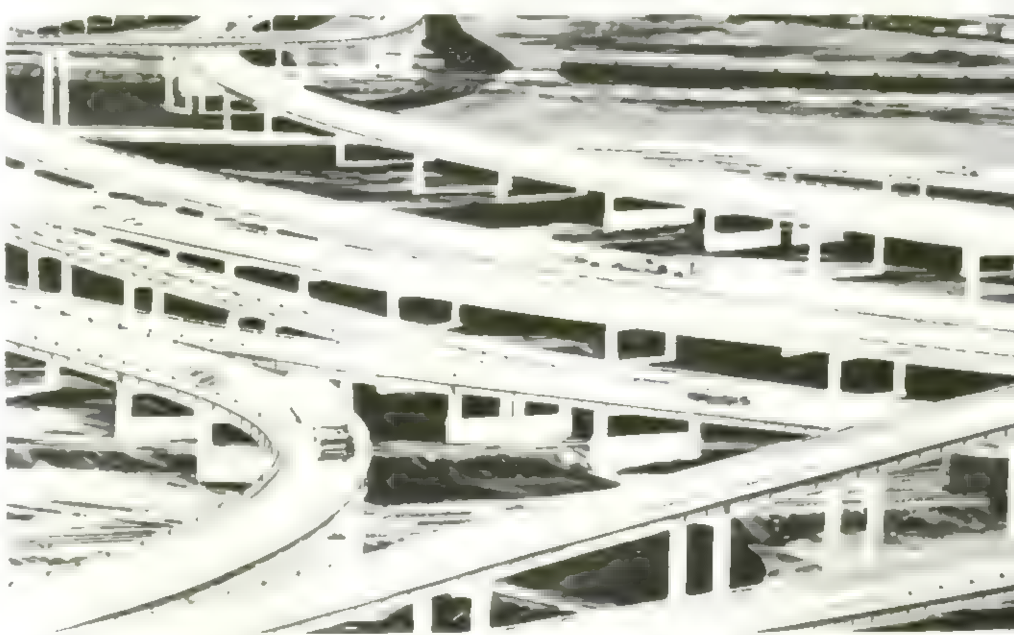
وهكذا ، فان القائمين على صناعة سيارات النقل عاكفون على تطوير هذه الصناعة وتحسينها ، وذلك بالالتزام بمتطلبات صارمة من حيث السلامة على وجه الخصوص ومن حيث نوعية الانتاج بشكل عام ■

اعداد : حكمت حسن

عن « موبل اندستريال ريفيو »



علامات المرور المتبعة في المملكة العربية السعودية .



شبكة من الطرق الحديثة المعلقة « Freeways » في مدينة « سانت لويس » بالولايات المتحدة الأمريكية ، وقد جرى بناؤها تسهيلا لحركة المرور في المدن المزدحمة بالسيارات .

لقاء مع :

الأستاذ عبد الكريم غلاب حول مستقبل الثقافة بالمغرب



اجراه الاستاذ ابو طالب زيان

لا مشاحة في أن الانتاج الأدبي على الطريقة العصرية في بلاد المغرب ، أمر حديث العهد جديد الاتجاه : ذلك أن الثقافة المغربية بمضامينها المتباينة واختلاف أغراضها ، ظلت الى أوائل هذا القرن ، يغلب عليها الطابع القديم ، ويعلوها هذا الغبار الذي عفر هذه الثقافة في ظلال عهود طويلة وأحقاب امتدت جذورها عبر أجيال تأرجحت عليها هذه الثقافة ، وان كان أكثر المثقفين في هذه البلاد حتى أواخر القرن التاسع عشر ، لم يأخذوا أنفسهم بالكتابة على الطرائق الجديدة ، الا بعد أن وضعت جل الجذور الثقافية متمثلة في الصحف والمجلات التي أخذت مكانها في كل من طنجة وفاس والرباط .

ومهما قيل في التخلف الأدبي لبلاد المغرب ، فلن يضير جلة أدبائه ، أنهم قدموا نظريات لقيت قبولا ولاقت اعراضا ، وان كانت في جملتها نظرات سديدة متزنة ، تعطي لكل القيم قديمها وحاضرها ، ما تستحقه من مقام وما تستلزمه من عناية . فالأديب عندهم ، هو المثقف ، أيا كانت ثقافته ! ولا أخال الأستاذ عبد الكريم غلاب ، رئيس تحرير جريدة « العلم » ، وصاحب التآليف المشهورة في الثقافة والأدب ، الا واحدا من الذين يهمهم التقدم الفكري في بلاد المغرب ومواكبة الثقافة بكل اتجاهاتها ، والدفع الى الوقوف على قدمين ثابتتين لمواجهة أي غزو فكري أجنبي .

قلت للأستاذ عبد الكريم غلاب ، وقد مر بالقاهرة في زورة عاجلة ، وأنا أعرف عنايته بوضع مخطط شامل لمستقبل الثقافة بالمغرب من خلال كتابته في الصحف وأحاديثه في الأندية والاذاعة ، وكتبه المتعددة :

— ما مستقبل الثقافة في المغرب بوجه عام ؟

فأجاب :

• مستقبل الثقافة في المغرب كمستقبل الثقافة في مختلف البلاد النامية التي تجتاز مرحلة المخاض في حياتها الثقافية والسياسية والاقتصادية . واذا كان لكل بلد ظروفه التي تأتي من حياته الخاصة من جهة ، ومن صلاته الفكرية والحضارية من جهة ثانية ، ومن أمجاده التاريخية من جهة ثالثة ، فان للمغرب ظروفا قد تختلف عن ظروف كثير من البلاد النامية التي تعاني فترة هذا المخاض . وعلى ذلك فان مستقبل الثقافة في المغرب ينطبع بكل هذه الظروف سواء كانت مشتركة مع بقية البلاد العربية أو مقتصرة على المغرب وحده . ولا نحتاج أن نشير الى كل ظرف من هذه الظروف ، وانما نشير الى ما له أثر فعال في مستقبل الثقافة ، سواء كان أثرا طيبا أو غير طيب . ولعل من أهم هذه الظروف ، أثر الثقافة الفرنسية في مستقبل الثقافة بالمغرب . فما من شك في أن الطابع الثقافي الفرنسي لم يقتصر على نواح معينة ، ولكنه تعدى ذلك الى نشر التعليم واللغة وأساليب التفكير والتدبير والحضارة الفرنسية .

على أنه لا ينكر أحد أن بعض هذه الجوانب مفيد في التقدم الحضاري والثقافي ، وان كان كثير منها يتسم بطابع التلقين والتعليم والتثقيف والدعم للفكر الفرنسي ، ويكاد يحجب آفاق الفكر الأخرى، عربية أو أجنبية .

واذا كانت لغة الأدب والبحث قد انتصرت في المغرب العربي ، فكانت العربية رغم عوامل التغريب ، فان مستقبل الثقافة من هذه الناحية مستقبل مشرق ، لأن أكثر الكتاب ينتجون بالعربية ، والذين لا يستطيعون الانتاج الا بالفرنسية يجدون أنفسهم منفصلين عن لغتهم القومية وعن قرائهم تقريبا . ولذلك كانت الغلبة للانتاج الفكري والأدبي باللغة العربية . والمنتجون بالفرنسية ، سواء في الجزائر — وهم أكثر عددا — أو في المغرب أو تونس يعدون على الأصابع . بعد ذلك انتقلت بالأستاذ عبد الكريم الى السؤال التالي :

— بماذا تفسرون تأخر النهضة الأدبية ببلاد المغرب عنها في مصر والشام مثلا ، وهل واجه الأدباء مشكلات صرفتهم عن البحث والكشف ومواكبة أدباء المشرق ؟

فقال :

• يمكن أن نؤكد أن الأدب العربي في المغرب لم يصل درجة التخلف التي وصل اليها في مصر والشام على عهد العثمانيين ، فقد احتفظت اللغة العربية بسلامتها وبلاغتها ، واحتفظ الأسلوب العربي بجماله وروعته ، ولم يصل درجة الابتذال بالمحسنات البديعية، ولم يكن الشعر متهافتا منحلا من حيث المضمون أو الأسلوب ، وانما كان شعرا له أسلوبه العربي السليم ، وله موضوعاته التقليدية العادية ، وله مضمون عادي متأثر بالثقافة المحدودة التي كانت تعتمد على العلوم العربية والاسلامية ، كما انتهت اليه في ذلك العصر . وكان النثر أيضا لا بأس به فقد كان الكتاب يهتمون بالموضوعات العلمية والتاريخية والاسلامية . والى جانب ذلك يهتمون بالرحلات والسفرات حيث كانت صلات المغرب بأوروبا والشرق الاسلامي على اتصال مستمر . وقد خلد كثير من السفراء والرحالين رحلات ممتعة على اختلاف موضوع الرحلات من سياحة وحج وسفارة . واحتفظ النثر في القرون الأخيرة بالمغرب بأسلوبه السليم ولغته المستقيمة ، سواء كان نثرا علميا أو أدبيا .

ولكن النهضة الأدبية التي شملت بلاد الشام ومصر في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن ، تأخرت في المغرب بعض الشيء ، فلم يتطور الشعر والنثر والترجمة والمسرح الا في أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات من هذا القرن ، حيث بدا التأثر بالانتاج الأدبي في مصر والشام والعراق ، وبالأدب الأوروبي الفرنسي والاسباني على السواء .

وفي رأيي أن التخلف عن مواكبة النهضة الأدبية يرجع الى بعض العوامل الهامة منها :

• الانعزال الذي بدا عليه المغرب ، وصلاته الدبلوماسية والاقتصادية مع مختلف الدول الاسلامية والأوروبية خلال القرون الثلاثة الأخيرة . اذ المعروف أن المغرب لم يخضع قط للخلافة الاسلامية في الشرق ، ولا امتد نفوذ الخلافة الأموية في الأندلس اليه ، وانما كون امبراطورية اسلامية امتدت في بعض الفترات الى حدود مصر شرقا والسودان الافريقي جنوبا ، وشملت الأندلس شمالا في عهد المرابطين والموحدين . وبعد انهيار هذه الامبراطورية تراجع المغرب الى حدوده التي كانت تمتد حتى نهر السنيغال ، وقد احتفظ بهذه الحدود ضد السيطرة العثمانية التي امتدت على العالم الاسلامي حتى الجزائر ، وضد مطامع الاسبانيين والبرتغاليين ، ثم الفرنسيين ، وهي مطامع كانت تستهدف المغرب كنقطة ارتكاز لتحقيق السياسة التوسعية من جهة ، ولضمان عدم رجوع المسلمين الى الأندلس من جهة أخرى .

ويمكن أن نسمي هذا انعزالا بان أثره البعيد في فصم عرى الاتصال الثقافي والحضاري مع الشرق والغرب ، وحتى مع البلاد العربية والاسلامية التي كانت خاضعة للنفوذ العثماني ، وان كان هذا لم يمنع المغرب من عقد الصلات الدبلوماسية والتجارية ومن محاولات جادة لتحسين العلاقات بينه وبين البلاد الاسلامية والأوروبية .

• تأخر ظهور المطبعة الحديثة ، فقد ظهرت هذه المطبعة في مصر مثلا مع الحملة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر في الوقت الذي كان فيه المغرب لا يعرف غير المطبعة الحجرية ، وينشر بها الكتب العلمية والثقافية . ولذلك لم تستطع أن تقوم بالدور الايجابي المهم الذي قامت به المطبعة في مصر والشام حيث بدئ بطباعة الكتب القديمة ، علمية ولغوية وأدبية .

• التستر بالانتاج الفكري والأدبي ، فقد كان كثير من الأدباء يتحرجون من اعلان طابعهم الأدبي ، وان عرف لهم شعر جيد . الا أن شهرتهم كفقهاء ومركزهم في التدريس والافتاء ، كان يدفع بهم الى أن يستتروا بشعرهم فلا يذيعونه الا بين خلصائهم ؛ ولا ينشرونه بين الناس ولا يسجلونه الا في أوراقهم الخاصة . ومعنى هذا التستر بالأدب كان له أثر واضح في تخلف النهضة الأدبية .

ولكن على الرغم من أن النهضة الأدبية تأخرت في هذه البلاد عن شقيقاتها في المشرق فأنها ازدهرت بعد تفتحها واستفادت من الشرق والغرب ، وأصبح للمغرب أدب ناهض في مختلف مجالي القول ، قد يقل في الكم عن مثيله في الشرق العربي ، ولكنه لا يقل عنه ان لم يقاربه في الكيف . بالرغم من ظروف النشر التي يعيشها ، وضعف التعاون الثقافي والأدبي بين شرق الوطن العربي وغربه .

على أن هذا التأخر الذي أصاب الأدب المغربي ، لم يكن على اطلاقه في كل منحى من مناحي الأدب ، فقد تقدمت المقالة الأدبية ، وشقت طريقها في هذه البلاد دون غيرها من سائر فنون الأدب . ولعل هذا يرجع الى عوامل ، أحاطت بها وتخلت عن غيرها من فنون القول .

قلت للأستاذ غلاب :

— بماذا تعللون تقدم المقالة الأدبية في بلاد المغرب بوجه عام ، عن غيرها من سائر فنون الأدب ، وهل احتفاظها بأسلوبها وسلامة لغتها وتطورها بالرغم من اطارها الأدبي الضيق يرجع الى عوامل معينة ؟

أجاب :

• ما من شك في أن المقالة الأدبية تعتبر أول فنون القول وأكثرها تطورا في مختلف الميادين وفي كل الآداب ، على الرغم من أن الشعر قد يكون أسبق منها ، لاقترانه بفن الغناء ، ولعدم اعتماده على الكتابة ، وخاصة الشعر العربي . وقد تطورت المقالة في الشرق العربي والمغرب العربي على السواء أكثر من بقية الفنون الأخرى لأسباب متماثلة ، منها : ان المقالة ربما كانت أسهل الفنون وأقلها تقييدا وأقربها تنظيما واخراجا ، ومنها أن مصدرها في الغالب الفكر والدرس والبحث . ورغم صعوبة ميدان البحث والدرس فهو أسهل فنيا من عمل أدبي يعتمد على التجربة الذاتية . ومنها أيضا الطلب والحاجة . فمختلف الصحف والمجلات تعتمد في مادتها الأساسية على المقالة والبحث ، لا على القصة والقصيدة والرواية والمسرحية عدا المجلات المختصة ، وقليلة هي في العالم العربي .

أما عن احتفاظ المقالة بأسلوبها وسلامة لغتها وتطورها فيرجع الى بعض الأسباب التي ذكرتها ، والتي مكنت المغرب من المحافظة على سلامة لغته . وقد استفادت المقالة كذلك من تطور فن المقالة في الشرق العربي سواء المقالة السياسية أو الأدبية . وأضيف الى كل ذلك ، أن المغرب لم يتعرض للحكم العثماني ليتأثر باللكنة الأعجمية التي أثرت على بعض البلدان العربية الأخرى ، وجعلت تطور أسلوب الكتابة فيها يتطلب مزيدا من الوقت ومزيدا من التجربة.

غير أن هذا لا يعني أن هذا التطور كان على حساب فنون القول الأخرى . فالملاحظ أن فن القصة ، مثلا ، قد تطور في ظرف وجيز ، وأصبح أدب القصة القصيرة في المغرب لا يقل جودة عنه في المشرق ، وان كان أقل منه من حيث الكم وتنوع الموضوع .

وقد تطور فن القصة في المغرب مدفوعا بالتجربة العربية التي جعلت القصة في مقدمة فنون الأدب في العشرين سنة الأخيرة ، ومدفوعا كذلك بتأثر الأدباء المغاربة بالأدب الغربي في لغاته الأصلية ، كالفرنسية والاسبانية والانجليزية أو مترجما الى العربية فيما تخرجه مطابع بيروت والقاهرة على أن الشعر قد أخذ حظه هو الآخر من التطور في الشكل والمضمون معا ، اذ اتجه بعض الشعراء الشباب الى الشعر الحر في حين يلتزم كثير من الشباب والكهول بالشعر العمودي التقليدي . وكلا الاتجاهين يعنى بالأسلوب العربي السليم ، وبالفكرة الرائدة .

وهنا كانت وقفة لا بد منها حول ما يقال عن التأثير والتأثر وان كانت كل الآداب أخذت وأعطت وأثرت وتأثرت . الا أنه لم يبن عليها ذلك كما بان على الأدب المغربي بوجه عام ، حتى ان المطالع لأي انتاج أدبي مغربي يلمس هذا التأثر ويأخذه هذا التطعيم الذي يلازمه .

فقلت للأستاذ غلاب :

— هل أثرت الثقافات الأجنبية على الأدب المغربي تأثيرا واضحا في كل أشكاله ، أم أنها أثرت على أشكال معينة من هذا الأدب ؟

قال :

• المثقفون المغاربة نهلوا من الثقافة الغربية ومن الثقافة العربية . وكثيرون هم الذين تأثروا بالثقافة الأجنبية . كما أن كثيرا من المثقفين يغلب عليهم التأثر بالثقافة العربية ، وقلة من هؤلاء وأولئك مزجوا بين الثقافتين . فكان التأثير العربي يغالب التأثير الأجنبي أو العكس . ولكن معظم الأدباء من هؤلاء المثقفين من الذين جمعوا بين الثقافتين أو اختصوا بالثقافة العربية وكان للآداب الأجنبية بعض التأثير فيهم عن طريق الترجمة .

ولهذا نجد أن التأثير الأجنبي عند المنتجين من الأدباء لم يكن واضحا الا في حدود ضيقة : خروج الشعر مثلا عن العمود التقليدي ، واقتباس بعض الصور ، أو الاتجاه الى بعض المناحي الجديدة في الشعر . ويبرز هذا الاتجاه ، في النثر ، نحو القصة وبعض مضامينها . كما نجد التأثير الأجنبي في المقالة والبحث قد وسع من أفق الباحثين ومنحهم بعض أساليب البحث الحديثة . ولكن التأثير لم يعد هذا النطاق . ولذلك نستطيع أن نقول أن التأثير الأجنبي في الأدب كان محدودا جدا .

غير أن بعض المثقفين ، والأدباء بصفة خاصة اتقنوا اللغة الفرنسية وكانت لغتهم العربية ضعيفة ، فاتجهت مواهبهم الى الانتاج الأدبي والفكري باللغة الفرنسية ، هؤلاء قلة قليلة ، فالشعراء منهم لا يتجاوزون أربعة ، والقصصيون لا يتجاوزون ثلاثة أو أربعة ، والباحثون على النطاق الفكري أو الاجتماعي أو الأدبي لا يتجاوزون ثلاثة أيضا ...

وتعليل هذه الظاهرة سهل . ذلك ان المثقفين المغاربة لم يشعروا قط حتى في عهد الاحتلال الفرنسي بأنهم مندمجون في المجتمع الفرنسي ، وحتى الذين لم تكتنفهم المشاعر الوطنية كانوا يحسون دائما بانفصالهم عن المجتمع الفرنسي وانتمائهم للمجتمع المغربي . ولهذا فان كثيرا من ذوي المواهب كانوا يحسون بأنهم منفيون في لغة أجنبية عنهم ، اذا صح أن يستعملوها في الحديث أو العمل الدراسي أو الاداري ، فلا يصح أن يستعملوها في العمل الأدبي الذي هو تعبير عن ذاتية الكاتب أكثر مما هو تعبير عن فكر مجرد أو احساس انساني يودي بأية لغة . كانوا يعودون الى المجتمع المغربي ، فيتكلمون العربية ، ويحسون بأن القراء كلهم عرب ، فلمن يكتبون اذن اذا هم كتبوا بالفرنسية ؟ هذا الانفصال بين اللغة التي يتقنون والمجتمع الذي اليه ينتمون ، دفعهم الى الانصراف عن الأدب عامة لأنهم لا يستطيعون أن يكتبوا بالعربية ، ولا تتفق اللغة التي يتقنونها مع انتمائهم الفكري والاجتماعي . ففضلوا الانصراف عن الكتابة ، والتسلل من ميدانها .

وهذا هو السر في أن المثقفين بالفرنسية لم يتجه منهم الى الأدب والكتابة الفكرية الا قلة . وأن معظم الأدباء والمفكرين في المغرب هم من المثقفين بالعربية أو من مزدوجي الثقافة .

° ° °

ولا يخامر المطالع لصحف العالم العربي ، أدنى شك في أن الأستاذ عبد الكريم غلاب من الذين يخططون للثقافة في بلاد المغرب ، ويعنون بدرس اتجاهاتها . لذلك رأيت أن أسأله :

— باعتبارك من رجال الفكر ، كيف تضع هيكل المستقبل الثقافي لهذه البلاد ؟

وقد أجاب الأستاذ غلاب عن سؤالي اجابة دقيقة ،

فقال :

• من الصعب جدا أن نضع هيكلا لمستقبل ثقافي لقطر من الأقطار العربية منفصل عن الأقطار الأخرى . غير أنه اذا كان لا بد من وضع هيكل للمستقبل الثقافي للمغرب بالذات . فيمكن أن أتصور هذا الهيكل في ثقافة عربية تستمد أصولها من ماضينا الفكري والاسلامي والأدبي ؛ وتطعم ذلك بثقافة حديثة عميقة تساهم في التقدم العلمي والحضاري ، وتستهدف الى جانب الرقي الفكري ، خدمة المجتمع اقتصاديا واجتماعيا .

بذلك يسير المستقبل الثقافي في هذه البلاد على القدمين معا كما يقال : قدم الماضي العريق والحاضر العميق . ووسيلة ذلك تتمثل في بذل أكبر مجهود في سبيل نشر التعليم والثقافة العامة وتيسيرها ، وفي تعريب التعليم بحيث تصبح اللغة العربية لغة التلقين في مختلف فروع المعرفة وفي مختلف مراحل التعليم . وفي توجيه التعليم بحيث يضمن للبلاد مختلف الأطر الثقافية العملية منها والنظرية الفكرية والتجريبية . وكذلك في العناية بالآداب والفنون والعلوم العالية .

بهذه الوسائل فيما أعتقد . يمكن تصور هيكل سليم لمستقبل الثقافة في المغرب ، وهي وسائل يمكن أن تطبق على بعض البلاد العربية وبخاصة تلك التي ما يزال التعليم فيها متأثرا برواسب فكرية ولغوية ، كانت فيما مضى تعمل على محو الشخصية العربية فيه وابدالها بشخصية أخرى هجينة .

واني لأتمنى أن يأخذ المغرب وضعه الثقافي الذي يعد نفسه له ويرضى عنه .. ■

بين الظل والجبل

للشاعر احمد ابراهيم الغزاوي

« رأيت ظهر ذات يوم سحابة تظلل جبل « ملحة » بالزاهر ، بمكة المكرمة ، وتحيط به في ثوان معدودة .. ثم تنحسر عنه في لمح البصر ، وكأنما هي تداعبه معاودة في خفر ودلال ، ثم تقبل عليه مرة أخرى وتغمره برحمة الله وغيثه المدرار .. فقلت :

طود تصاعد ظلّه … من سفحه ، لشعافه
مرت عليه سحابة … كالحلم في أطيافه
حضنته ، وهو مطأطئ … كالطفل في ألفافه
ورنت اليه بنظرة … هزته من أعطافه
وبها اشرأب الى « الحيا » … يرويه من تلهافه
حتى اذا هو خالها … تمري – على أكنافه
سخرت به ، وتحولت … والوجد ملْ شغافه

* * *

ثم انثنت ، وكأنها … رقت ، لفرط جفافه
فسقته وبلا مغدقا … ينهل في توكافه
وهمت عليه ، سخية … وحبته فوق كفافه

* * *

والشمس ترنو من عل … أسفا على الحافه
وتقول : حسبك ، واصطبح … أو فاغتبق بسلافه
واصدع ، وذكّر من نسوا … بالسّر من اخلافه
ما الغيث الا « نعمة » … لله – من ألطافه
ودوامها في شكره … فلنستزد بهتافه

ع. قباني

العلا .. غادة بين الأطلال

مدينة وادعة في أحضان وادي القرى الخالد، سطر التاريخ على صخورها أروع الملاحم، وارتفعت على أرضها من قديم الزمان دول واندكت دول، وعاشت في كنفها أقوام واندثرت أقوام، وترعرعت تحت أجوائها حضارات وازدهرت مدنيات. مدينة تجمع بين معالم الماضي السحيق ومآثر الحاضر المشرق في تآلف عجيب. شرفها الرسول الكريم، صلى الله عليه وسلم، بنزوله بها حاملاً رسالة الإسلام والسلام فبدد ظلام الجهل بنور الإيمان. تلك هي «ديدان» الماضي و«علا» الحاضر.



بيوت نحتت جنبا الى جنب في سفح هذا الجبل بمدائن صالح، والتي تبعد عن العلا نحو ثلاثين كيلومترا.

منطقة العلا في التاريخ

يكتنف تاريخ هذه المنطقة كثير من الغموض ، لا سيما في الأحقاب السابقة للميلاد ، الأمر الذي يتعذر معه التمييز بين الحقيقة والخطأ ، والتاريخ والأسطورة . كما نجد أن المراجع التاريخية التي عالجت تلك الأحقاب الغامضة متفاوتة متضاربة فيما يتعلق بتحديد الزمان والمكان . ومع ذلك التفاوت والتضارب بين هذه المراجع نجد أنها تشير الى أن هذه المنطقة كانت موئلا ، منذ تلك العهود السحيقة ، لكثير من القبائل والأقوام والدول ، مما لا يدع مجالا للشك في أهميتها وحيويتها . وفيما يلي نستعرض الأقوام التي استوطنت هذه المنطقة أو أخضعتها لنفوذها ، وما خلفته وراءها من آثار ظاهرة ، ونقوش وكتابات متعددة ، وكنوز دفينة ، لم يكشف النقاب بعد عن كثير من معالمها الأثرية .

مملكة ديدان

وردت كلمة « ددان » في التوراة أكثر من مرة . فالعلا الحديثة ، كما يرى المؤرخون والباحثون المحدثون ، تقوم على أنقاض «ددان» أو « ديدان » . ويرى « جلاسر — Glaser » أن الديدانيين كانوا شعبا اشتهر بالتجارة ، وكانت لهم علاقات تجارية مع الخليج العربي ، ومع « سبأ » . وكانت ديدان مركز اتصال بين الطرق التجارية الرئيسية التي تربط جنوب الجزيرة العربية بالشام ومصر ، ومنها يتفرع طريق آخر يخترق صحراء النفود الى قلب الجزيرة وسواحل الخليج العربي وبابل . وقد ورد في النصوص المعينية اسم شعب يدعى « ددن » أي « ددان » أو « ديدان » . ولا يشك « جلاسر » في أن الددانيين المذكورين في النصوص المعينية هم من القبائل العربية القديمة التي عاشت في زمان حكومة معين التي سيطرت عليها . ويذكر « موسل — M. Musil » في كتابه « الحجاز الشمالي » أن مركز « ديدان » قد تضعضع في زمن الأنباط الذين حولوا عنها الطريق التجاري ، وبذلك تعززت مكانة الحجر « مدائن صالح » ، عاصمتهم الثانية بعد البتراء . ولم يمض عليها زمن طويل حتى اندثرت وقامت مكانها مستوطنة أخرى تدعى « القرح » على بعد ثلاثة كيلومترات الى الجنوب من « ديدان » ، ولم تعمر هذه طويلا ، وبرزت الى الوجود مدينة « العلا » الحديثة .

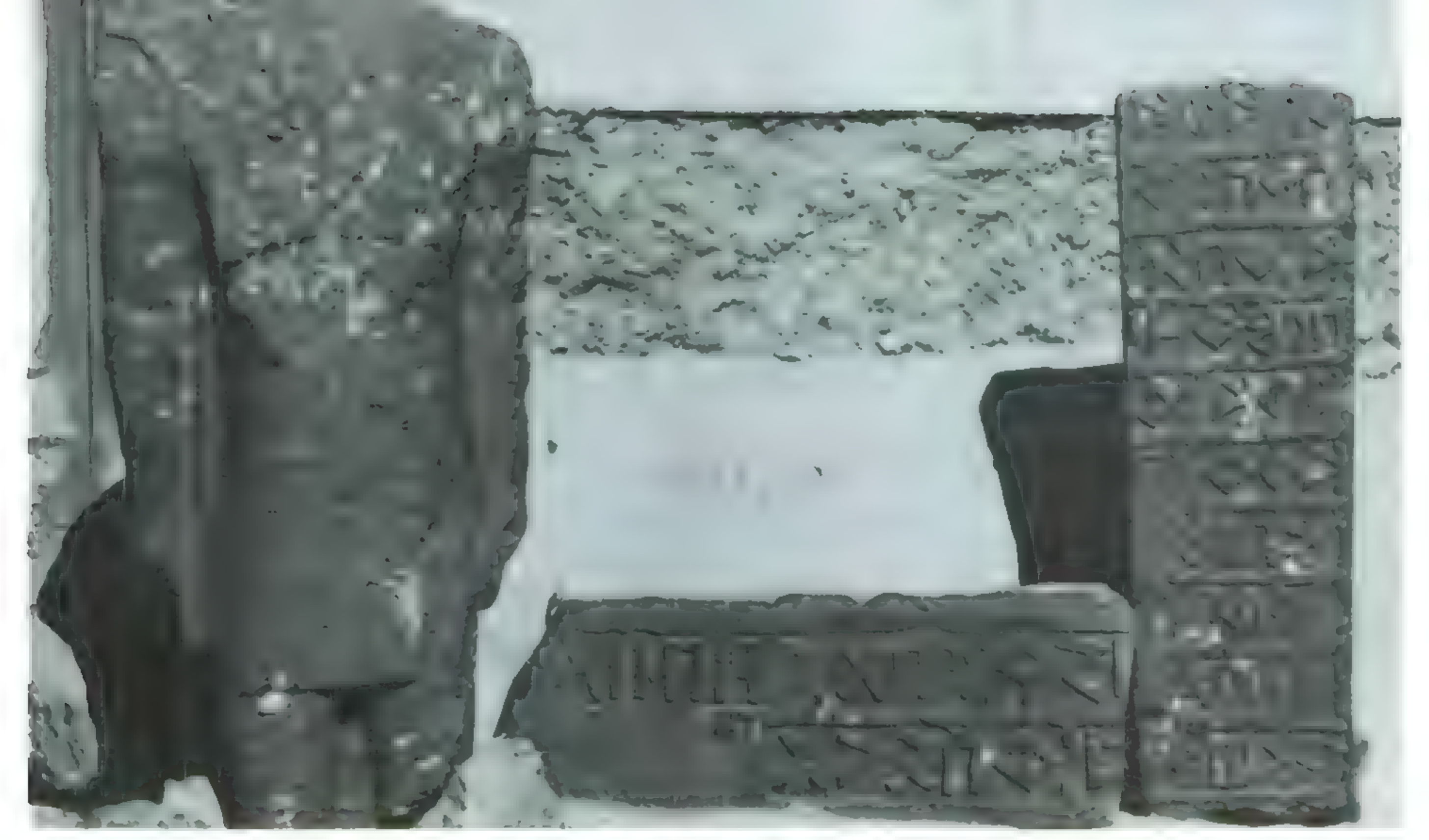
وتشير المصادر القديمة الى أن « ديدان » كانت تتجر مع مدينة « صور » بالعاج والآبنوس وطنافس الركوب . وقد ذكرها ياقوت في معجم البلدان بقوله : « الديدان » مدينة حسنة كانت في طريق البلقاء في ناحية الحجاز خربت . وهناك من يقول أن « الخريبة » الحديثة الواقعة على بعد خمسة كيلومترات الى الشمال الشرقي من العلا كانت تدعى « ديدان » ، يؤيد ذلك ما عثر عليه في أنقاضها الماثلة للعيان من كتابات ديدانية ولحيانية ومعينية ، وكلها متفرعة عن الخط المسند . ويذكر الدكتور عبد الرحمن الانصاري أن مملكة ديدان لم تعمر طويلا ، وقد عاشت بين القرنين السادس والخامس قبل الميلاد .

اللحيانيون وارثو تراث ديدان

وهم من القبائل التي كانت تعيش على ساحل البحر الأحمر بين « الوجه » و « ضبا » ، كما يذكر بعض المؤرخين ، ثم هاجروا الى الداخل واستقروا في واحة ديدان .. واستطاع اللحيانيون أن يسيطروا على زمام الدولة وأن يتقلدوا مناصب الحكم فيها . ومع أن اسم لحيان لم يرد في التوراة ، الا أنه كان مألوفا لدى الكتاب الكلاسيكيين



نظرة وابتسامة وبرتقال من العلا .



كتابات حجرية منقوشة على الحجرين الأول والثاني من اليمين ثم تمثال لمتهشمة أطرافه فقد عثر عليه في أنقاض الخريبة.

القدامى . وقد بسط اللحيانيون نفوذهم على منطقة واسعة . حتى أن خليج العقبة كان يدعى « خليج لحيان » الأمر الذي يدل على أنهم لم يسيطروا على الطريق التجاري البري فحسب . بل على الطريق البحري أيضا . وكان التجار الأغريق والبحارة يدفعون الجزية للجباة من بني لحيان . ومع أن « ديدان » كانت عاصمة لهم الا أن نفوذهم قد امتد الى « الحجر » التي اتخذوا منها مقرا لحكامهم . وبقيت كذلك حتى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد عندما أخذ نفوذهم يضمحل أمام سلطان المعينيين من الناحية التجارية والاقتصادية .

معين وسبأ

يختلف المؤرخون في تحديد الحقبة التي امتد اليها نفوذ معين وسبأ الى منطقة العلا والمعروف أن المعينيين والسبئيين أنشأوا المحطات المحصنة على طول الطريق التجاري العظيم الممتد من اليمن الى ثغور البحر الأبيض المتوسط لحماية قوافلهم التي كانت تحمل الى مصر والشام البلسم والحجارة الكريمة والبخور والتوابل والعطور والمر وغيرها . وكانت « ديدان » مركزا منهما يقيم فيها رجل يمثل ملوك معين وسبأ ويلقب « بالكبير » والجدير بالذكر أن كلتا الدولتين لم تعيرا الناحية السياسية بالا . بل كان همهما اقتصاديا بحتا .

الأنباط

جاء الأنباط من الشمال ، وأخذوا يوسعون رقعة دولتهم بعدما قوي مركزهم ، واستطاعوا أن يحتلوا « الحجر » ، أي مدائن صالح . في عهد ملكهم الحارث الرابع (٩ق.م — ٤٠م) واتخذوا منها عاصمة ثانية لهم . ومن المحتمل أن يكونوا قد سيطروا على العلا أيضا لقربها من « الحجر » . وتشهد المدافن والنقوش « الابيغرافية » في مدائن صالح على ما بلغه الأنباط من نفوذ . كما أن الكتابات النبطية المنقوشة في مداخل المدافن في « الحجر » تنحدر من الخط الأرامي . مع أن الأنباط كانوا يتفاهمون بلغة عربية . ولما لم يكن للعربية حروف تكتب في تلك العصور القديمة أخذوا صور الكتابة الأرامية عن جيرانهم في الشمال . وقد تطور الخط النبطي حتى أصبح في القرن الثالث الميلادي الخط المألوف في لغة عرب الشمال . أي لغة القرآن ولغة العصر الحاضر .

وفي عام ١٠٦م قضى الامبراطور الروماني « تراجانوس » على سيادتهم القومية وضمت ديارهم الى المملكة الرومانية . وصارت « ايالة » تابعة لها . ويعد بدو الحويطات اليوم من سلالة الأنباط .

الثموديون

ثمود من الشعوب العربية البائدة ، وقد بعث الله اليهم النبي صالحا ، عليه السلام ، فكذبوه فهلكوا . كما في قوله سبحانه وتعالى : **« ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين »** ، وسموا أصحاب الحجر لأن ديارهم كانت منحوتة في الجبال . فكانت حجرا يحجرهم عن أعدائهم وخصومهم . ويظهر من الآية الكريمة : **« وثمود الذين جابوا الصخر بالواد »** أنهم قطعوا صخر الجبال واتخذوا فيها بيوتا(١) . وأن « الواد » هو وادي « القرى » . وتلخص سورة الأعراف قصة ثمود . فيقول سبحانه وتعالى : **« والى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره »** .. الآيات .

ويرد اسم ثمود في الكتب العربية مقرونا باسم « عاد » . ويروى أن بعض الشعراء الجاهليين كانوا يعرفون اسم « ثمود » وشيئا عن مصيرهم . فورد في الشعر المنسوب لأمية بن أبي الصلت قوله :

كثمود التي تفتكت الدين
عتيا وأم سقب عقيرا

---

(١) تفسير الجلالين

وهذا « سلمة بن الحرث » وهو من معاصري عمرو بن كلثوم يقول :

حتى تـزور السباع ملحمـة
كأنها مـن ثمود أو ارمـا

وقد جاء ذكرهم في شعر جرير بن خرقاء العجلي ، وشعر لبيد بن أبي ربيعة من أصحاب المعلقات . أما المؤرخون والباحثون فيختلفون في تعيين مكان قبيلة ثمود والزمن التي عاشت فيه . فمنهم من يقول أن الثموديين ظهروا في الوقت الذي أخذ فيه سلطان اللحيانيين يضمحل . وقد ذكرتهم النصوص الآشورية في جملة الشعوب التي تغلب عليها « سرجون الثاني » الآشوري في القرن الثامن قبل الميلاد . وعرفهم كتاب اليونان والرومان باسم « ثموداي » .

وتشير بعض المصادر التاريخية الى أن الثموديين أدركوا أيام المسيح ، عليه السلام ، وعاشوا بعد الميلاد ، وكانوا يقطنون آنذاك أعالي الحجاز . وقد عرف أنهم كانوا يمتلكون في منتصف القرن الثاني للميلاد حرّتي « العويرض » و « الرهاة » . ويرى « دوتي — Doughty » أن « الحجر » هي موضع « الخريبة » في الوقت الحاضر ، لا « مدائن صالح » التي هي في نظره «حجر »(٢) الأنباط . ويرى أن آخر ذكر لهم ورد في التاريخ هو التحاق فيلق من الخيالة الثمودية بجيش بيزنطة في القرن الخامس للميلاد ، وأن النصوص الآشورية سمت المنطقة التي كان يقيم بها الثموديون والشعوب الأخرى التي شاركتها في محاربة الآشوريين « Bari » التي تشير الى كلمة « برية » العربية ، أي البادية . هذا وقد عثر على النقوش الثمودية في أواسط نجد ، وفي الربع الخالي ، وفي الطائف ، ونجران ، بالاضافة الى ما عثر عليه في الحجر .

وقد دخلت المنطقة بأسرها في الاسلام . وروي أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لما نزل بالحجر في غزوة « تبوك » استقى الناس مـن بئرها ، فلما راحوا ، قال : لا تشربوا من مائها شيئا ، ولا تتوضأوا منه للصلاة ، ولا يخرجن منكم الليلة أحد الا ومعه صاحبه ، وأمرهـم بالاسراع ، وتقنعة الرؤوس ، وأن يهريقوا الماء ، ويعلفوا العجين الذي عجنوه للابل . وقيل أنه أراهم مرتقى فصيل الناقة حين ارتقى فـي « القارّة » ، وهو اسم جبل هناك يطلق عليه الآن جبل « الحوارة » في الشمال الغربي من الحجر . كما مر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بالعلا ، وقيل انه توضأ من عين « تَدْعِل » المشهورة التي لا تزال جارية ، وقد دعا لها ، وهي من أقوى العيون في العلا . وقد ازدهرت هذه المنطقة أبان العصور الاسلامية المتعاقبة ، فكانت من أهم المراكز على طريق الحاج الشامي . وقد خضعت العلا للحكم العثماني سنين طويلة . وكان بها وال من قبل الباب العالي . وكان لخط سكة حديد الحجاز الذي يمر بها أثر كبير في انعاشها تجاريا واقتصاديا ، ولكن ذلك لم يدم طويلا ، اذ كان من نتائج الحرب العالمية الأولى أن دمر هذا الخط وأصاب منطقة العلا ركود عام ، وعزلة شاملة .. حتى دبّت فيها الحياة من جديد مؤخرا فأخذت المشاريع الحيوية ، من زراعية وعمرانية وتعليمية ، تعيد اليها نضارتها وبهاءها .

الآثار في المنطقة

تحتضن منطقة العلا معالم أثرية قيمة ، يقف الانسان حيالها مشدوها ، فهي تدل على حضارة عريقة بلغت مستوى رفيعا في فن العمارة والزخرفة والنحت . هذه الآثار كانت ، ولا تزال ، محط أنظار الكثيرين . ولا شك أنه عندما يتم قريبا ربط العلا بطريق معبد ستصبح بقعة سياحية جميلة في المملكة .

ففي الجزء القديم من العلا « الديرة » يرى الزائر « مسجد الصخرة » الذي يروى أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، صلى فيه أثناء مروره بالعلا . كما أن هناك مسجد « العظام » القريب من مسجد الصخرة ، ويقال أن النبي عليه السلام صلى فيه أيضا . وفي وسط البلدة القديمة يرتفع جبل شاهق يقابل مسجد الصخرة وينتهي بقمة منبسطة تقوم عليها أنقاض قلعة تشرف على الوادي يطلق عليه جبل « أم ناصر » نسبة الى القائد العربي « موسى بن نصير » الذي يعتقد بأنه مدفون فوق قمة هذا الجبل .

وفي الحجر ، يشاهد الزائر محطة سكة حديد الحجاز ، وهي ثاني المحطات الرئيسية بعد دمشق ، وفيها « قلعة الحج » ، وعلى مقربة منها ناعورة لرفع الماء تقوم على بئر عميقة خلفها بركة كبيرة . هذا بالاضافة الى كثير من النقوش والكتابات المنتشرة بين أرجائها .

وعلى بعد خمسة كيلومترات الى الشمال الشرقي من العلا تقع « الخريبة » التي تمتد من وادي « المعتدل » شمالا الى « تلعة الحماد » جنوبا ، وهي تزخر بالآثار والنقوش . وقد ذكر « دوتي » أن المرء يلاحظ بأن هذه البلدة قد تعرضت الى



جبال شاهقة وتكوينات صخرية بديعة .



بقايا الحوض في «خريبة » والمعروف بـ«محلب الناقة» وهو منحوت مـن الصخر الأحمر الوردي ويبدو أحد رجال خريبة واقفا على أعلى درجاته الثلاث .

(٢) Travel in Arabia Deserta

زلزال عنيف قلب سافلها عاليها ، ودليل ذلك تلك الأنقاض التي تغطي رقعة واسعة تتخللها مزق الفخار والخزف والأواني الحجرية . وفي وسط هذه البقعة المردومة يشاهد المرء « محلب الناقة » ، اشارة الى ناقة النبي صالح ، وهو عبارة عن حوض أسطواني الشكل منحوت من الصخر الأحمر ، يبلغ قطره ثلاثة أمتار وعمقه ثلاثة أمتار أيضا ، وله ثلاث درجات في داخله . وفي جبل الخريبة ، التي تنبسط أمامه الأنقاض ، تقبع بيوت أو مقابر منحوتة شبيهة بمقابر مدائن صالح . ولقد رأيت فوق مدخل أحد البيوت تمثالين صغيرين أغلب الظن أنهما أسدان ، كما يشاهد فوق مدخل آخر تمثالان شبيهان بالأولين ، الا أنهما أكبر . وداخل البيت عددت اثني عشر قبرا . هذا ، وعلى مدخل كل بيت شاهدت لوحة « ابيغرافية » تضم كتابة أثبتت الدراسات أنها لحيانية . والجدير بالذكر أن أجزاء كبيرة من جبل الخريبة اقتطعت بالديناميت لاستعمالها في انشاء الخط الحديدي ، مما قوض بعض المقابر وشوه معالمها . والى الجنوب من العلا على بعد عشرة كيلومترات تقع « المابيات » التي توجد فيها أطلال سور وقلاع . وقد عثر في الجبل المحاذي لها على كتابات كوفية تظهر فيها أسماء بعض العباسيين ، كالفضل بن الربيع ، وجعفر بن يحيى البرمكي ، كما تنتشر على أرضها قطع الخزف والزجاج والأواني الفخارية .

أما « الحجر » التي تقع الى الشمال الشرقي من العلا ، على بعد ثلاثين كيلومترا ، فهي غنية بآثارها وقصورها ومدافنها ونقوشها وتماثيلها . ففي الجبال المنتشرة في تلك المنطقة نحت الأقدمون بيوتا ، يسكنونها أحياء ويدفنون فيها أمواتا ، أما داخل البيت فهو بسيط لا يزيد على غرفة مربعة أو مستطيلة يختلف حجمها بحسب حالة صاحبها المادية على الأرجح ، وتضم عددا من القبور في جوانبها ، ويحوي بعضها رفوفا منحوتة في الجدران . وتتجلى روعة الفن والزخرفة في واجهة البيت الأمامية التي يدل نمط هندستها على أن الفنان يبدأ في نحتها من أعلى الى أسفل . فقصر « الفرد » المواجه لجبل « الأثالب » ، أو « الأثالث » ، الذي سمي بذلك لانعزاله عن غيره من البيوت ، يمتاز بواجهة عريضة ، يبلغ ارتفاعها عشرين مترا وعرضها عشرة أمتار ، ويعلو مدخله افريز مثلث مزدوج ينتصب عليه نسر أو باز مسبل جناحيه ، وتحت النسر حيتان تتدليان من رأس تمثال ، وعلى جانبي الباب عمودان بارزان ينتهي كل منهما بكأس كبيرة . وتكاد تتشابه واجهات البيوت في مدائن صالح الا من فروق زخرفية بسيطة ، اذ نجد أحيانا تحت الافريز الذي يعلو المدخل أزهار أقحوان ومزهريات . كما تعلو كل مدخل لوحة عليها كتابة نبطية تتضمن اسم صاحبه وتاريخ انشائه ومعلومات أخرى . فهذا بيت تقرأ فوقه هذه العبارة : « هذا القبر بنته « كمكم » وابنتها « وائلة » لهما ولأعقابهما من بعدهما . وأن الملكة كمكم وابنتها واللات وعموت وعشتروت والشري تلعن كل من استعمل هذا القبر أو دفن فيه أو أخرج منه جثة أو عظمة بغير اذن من كمكم وابنتها » .

ومن أبرز المدافن المعروفة في مدائن صالح قصر البنت ، وقصر الصانع ، وديوان أبي زيد ، وهي في اعتقادي تسميات حديثة تتمشى مع ما يتناقله عنها أبناء المنطقة من قصص ممتعة ، قد يلعب الخيال في نسجها دورا كبيرا .

والى جانب المدافن في مدائن صالح يرى الزائر آبارا قديمة منحوتة في الصخر ، بعضها مطمور والبعض الآخر يستعمله الفلاحون لري البساتين ، ومن أشهرها « بئر الناقة » . وفي الشمال الغربي من الحجر ينتصب « جبل الحوارة » المصقول الجوانب مما يجعل ارتقاءه صعبا .

وفي آخر المطاف نمر بالعذيب بين العلا ومدائن صالح وهي تصغير كلمة « عذب » ، سميت بذلك نسبة الى بئرها الأثرية المشهورة بعذوبة مائها . وقد ورد ذكر العذيب في أشعار كثيرة منها ، قول الشاعر « كثير عزة » :

خليلي ان أمّ الحكيم تحمّلت
وأخلت بخيمات العذيب ظلالها
فلا تسقياني من تهامة بعدها
بلالاً ، وان صوّبُ الربيع أسالها

ويظهر من الأشعار المختلفة أن هناك أكثر من مكان يطلق عليه اسم « العذيب » . وفي جبل « العكمة » من منطقة العذيب حيث الكهوف والمغاور عثر على مخطوطات ونقوش حجرية . ويقال ان النبي صالحا ، عليه السلام ، صعد اليه حينما حل بقومه العذاب .

موقع جميل وطبيعة ملهمة

مدينة العلا ، مقر الامارة ، تعتبر بحق واسطة العقد بين مدن الحجاز الشمالية . ومنطقة العلا تكاد تكون مستطيلة الشكل ، يبلغ طولها شمالا وجنوبا ما يزيد على ٣٠٠ كيلومتر ، وعرضها شرقا وغربا حوالي مائة كيلومتر . فهي تمتد شمالا حتى حرة « الرهاة » المتصلة من الجنوب بحرة « العويرض » المحاذية لوادي القرى من الجهة الغربية ، وجنوبا حتى وادي « هديّة » الذي يصب في وادي « الحمض » ، وشرقا حتى جبل « برد » و « أرواف » ، وغربا حتى « خرباء » . ومنطقة العلا جبلية تتخللها الشعاب والأودية ، ومن أشهرها وادي « القرى » الذي تغنى به الشعراء ، ومنهم جميل بن معمر المشهور بجميل بثينة . وكان وادي القرى من منازل « بني عذرة » قبيلة الشاعر ، فيه شب وترعرع ، وفي ذيل « وادي بغيض » التقى بابنة عمه بثينة ، فكان سباب وكان حب ، وفي ذلك يقول :

جانب من أنقاض مدينة « الخريبة » وقد ظهرت في أقصى الصورة أشجار النخيل وبعض الجبال والتكوينات الصخرية .





أحد بيوت مدائن صالح وقد ادركت المنية صاحبه قبل أن يتم نحته في الجبل .

فن الزخرفة والنقش يتجلى في البيوت المنحوتة في جبال مدائن صالح .

وأول مـا قـاد المـودة بيـننا
بوادي بغيض ، يا بثين ، سباب
وقلنا لها قولا ، فجاءت بمثله ،
لكل كلام ، يـا بثين ، جـواب

ولما أبعد جميل الى مصر ، أرسل لبثينة أبياتا من الشعر ضمنها حنينه الى مرتع صباه :

ألا ليت ريعان الشباب جديـد
ودهرا تولى ، يـا بثين ، يعـود
ألا ليت شعري ، هـل أبيتن ليلة
بوادي « القرى » ؟ اني اذن لسعيد
وهل أهبطن أرضا تظـل رياحهـا
لها بالثنايـا القاويات وئيـد ؟
وهل أرين يوما بـه ، وهي أيّم
وما رثّ من حبل الصفاء جديد ؟
وقد تلتقي الأشتات بعد تفـرق
وقـد تدرك الحاجات وهي بعيـد

ويروى أن النعمان بن الحارث الغساني أراد غزو بني حُنّ بن حزام من عذرة ، فنهاه النابغة الذبياني ، وأخبره أنهم قوم أشداء مرهوبو الجانب في وادي القرى ، منتشرون في حرة وشعاب يعرفون مسالكها ومنعرجاتها ، ويتحصنون بمجاهلها ومتاهاتها ، سبق لهم أن منعوا وادي القرى من كل عدو طامع . وفي ذلك يقول :

لقد قلت للنعمان يـوم لقيتـه
يريد بني حُـن ببرقـة صادر
تجنب بني حُـن فان لقاءهـم
كريه ، وان لم تلق الا بصابـر
عظام اللهى ، أولاد عـذرة انهم
لهاميم ، يستلهونهـا بالحناجـر
وهم منعوا وادي القرى مـن عدوهم
بجمع مـبير للعـدو المكاثـر
أتطمع في وادي القـرى وجنابـه
وقـد منعوا منه جميع المعاشر

ويبدأ وادي القرى من وادي « حَوْضه » في شمال الحجر ، ويتجه جنوبا بين سلسلة من الجبال ، ويتصل بوادي « الجزل » جنوبي العلا ، ثم يصبان في وادي « الحمض » الذي يتجه الى البحر الأحمر ، ويصب فيه جنوبي « الوجه » . وهناك أودية أخرى تنحدر نحو وادي القرى ، منها : حوضة ، وشلال ، وعورش وثربة ، والحجر ، والعذيب ، والعلا ، والمنشية ، وصدر ، وجيدة ، والقعرة ، ومغيراء ، ومطران . ولوادي العلا روافد أو شعاب تعرف « بالتلاع » ، أهمها من الشمال : المحاش ، والمذبحة ، والحمّاد ، والمعتدل . ومن الجنوب : صدر ، والخالص ، وساق . أما أشهر الجبال التي تحيط بوادي العلا من الشرق ، فهي : وقير سحيم ، وهجهوجه ، ومجدر . والفحل ، والفارع ، والرّماث ، والخربة . ومن الغرب : أم هشيم ، والضبعية ، ومستورة ، وأم الظباء ، وصدر ، والمطوّقة ، والخالص ، وحرة العويرض ، وأبو القناطير ، وأم درج ، وجبال عشار ، وعكمة . كما أن هناك جبالا أخرى منتشرة في المنطقة ، كجبال سلع . ودخان ، ونهر ، وأبو القشع ، وأبو الكتة ، وغيرها .

وينتمي سكان مدينة العلا الى قبائل حرب ، وجهينة ، وعنزة ، وبني صخر . أما البدو القاطنون في الهجر فينتمون في الغالب الى قبيلتي بلي ، وعنزة . ويشتغل معظم سكان مدينة العلا في الزراعة والتجارة وفي الوظائف الحكومية المختلفة . أما البدو فبعضهم يعمل في رعي المواشي والبعض الآخر في الزراعة . وقد أسهم مشروع توطين البادية الذي تنفذه الدولة هناك في استقرار البدو في القرى والهجر واشتغالهم بالزراعة .

ويتبع أمارة العلا ما يزيد على خمسين قرية وهجرة ، أهمها : مغيراء ، والعذيب ، والحجر ، وشلال ، وثربة ، والنشيفة ، وأبو راكة ، والفارعة ، وجيدة ، والضليعة ، وأم زرب ، وحريمل .

وتمتاز منطقة العلا بمناخ لطيف صيفا وشتاء اذ يبلغ متوسط درجة الحرارة في الشتاء ١٢ مئوية ، وفي الصيف ٢٥ مئوية . أما الرياح السائدة في المنطقة فهي شمالية دائمة نادرة التقلب وقليلة الغبار . وتهطل الأمطار على المنطقة في فصل الشتاء ، وتختلف كميتها من عام الى آخر ، ففي عام ١٣٨٨هـ مثلا بلغت كمية الأمطار التي سقطت على ربوعها ٧٠ مليمترا .

وفي وادي القرى الخصيب ، الممتد من قرية « مغيراء » الى ما وراء قرية « الحجر » أي مدائن صالح ، بقليل ، وهي مسافة لا تقل عن ستين كيلومترا تنتشر البساتين النضرة المتصلة بعضها ببعض كالعقد المنظوم . في هذه الرقعة الصغيرة أودعت الطبيعة السخية مظاهر الجمال والروعة : جبال وردية شاهقة على جانبي الوادي لا تكاد تصل الى قممها الغربان ، وعلى سفوحها رمال ناعمة تشبه النضار في لونها ، وأمامها الوادي بأشجار النخيل الباسقات . وأشجار البرتقال والليمون يتضوع أريج أزهارها في الأجواء عبقا فواحا ، وعلى أفنانها تشدو العصافير وتغرد البلابل أجمل الألحان . وعيون متفجرة ينساب ماؤها عذبا سلسبيلا . ناهيك عن آثارها ونقوشها الباقية التي تحكي قصة ماضيها المجيد وحضارتها الزاهرة . هذه الرقعة الصغيرة هي للمؤرخ سفر مفتوح ، وللعالم الأثري مبتغى ، وللشاعر والأديب منبع الهام ، وللرسام فكرة وايحاء . وللمتأمل عظة وعبرة ، وللسائح متعة وخبرة .




الطلاب في المختبر يجرون تجارب على الخواص الكيميائية للأحماض والقواعد باشراف أستاذ العلوم في مدرسة « موسى بن نصير » .

العلا وضواحيها

كانت العلا في العهد العثماني تابعة لقضاء « الوجه » ، وكان فيها قائمقام يدير شؤونها ، ثم أصبحت قبيل مد خط سكة حديد الحجاز تابعة لمحافظة المدينة المنورة ، وهي لا تزال كذلك حتى اليوم . وفيها امارة تشرف على المنطقة ، ويتبعها ثمانية امارات فرعية في القرى الرئيسية ، هي : العذيب ، والحجر ، ومغيراء ، وجيدة ، والنشيفة ، والفارعة ، وأبو راكة ، والهجر الثلاث وتضم العلا عدة أحياء تقوم كل منها على عين تنتشر حولها البساتين ، وهي ليست متلاحمة شأن الأحياء في المدن الكبيرة ، وذلك لتباعد العيون . ويستعمل أبناؤها الدراجات النارية للتنقل بين هذه الأحياء ، التي تضم : المنشية ، واليسيرة ، والمنصورة ، والمحمودية ، والبركة ، والرزيقية ، والبحرية ، والخميسية ، والصخيرات ، والبلدة القديمة (الديرة) ، والجديدة ، وصدر . ويتولى شؤون كل حي أو أكثر عمدة منها . أما قلب الحركة النابض في العلا فهو البلدة القديمة . وللعلا ، بحكم موقعها وخصب واديها ، علاقات تجارية مع المدن المجاورة ، كالوجه ، وتبوك ، وتيماء ، والمدينة المنورة ، فهي تصدر لها التمور والحمضيات والحبوب والخضر ، وتستورد من الوجه الأسماك . وكانت العلا منذ دخلت في الاسلام مركزا تجاريا



« القصر الفريد » تحفة من الفن المعماري : وهو قصر منحوت في جبل الأثالث بمدائن صالح .

مرموقا ، تمر بها القوافل التجارية المتجهة شمالا وجنوبا . كما كانت الروضة ينزل فيها الحاج الشامي يتفيأ ظلالها ويرتوي من مائها . مر بها الرحالة « ابن بطوطة » ووصفها « بأنها واحة خضراء ، وأن أهلها كرام أمناء ، وأن الحجاج كانوا يؤمنون عندهم ودائعهم . »

وفي العلا نجد بيوتا مبنية بالحجر الوردي المقتطع من الجبال المحيطة بها ، ذات أبواب ونوافذ مقنطرة غاية في الجمال والرونق . وهذا الطابع من البناء آخذ في الانقراض فقد أخذت تظهر الى حيز الوجود بيوت مبنية بالاسمنت المسلح . ومن أهم المشاريع التي يتطلع اليها أبناء العلا بتفاؤل كبير « مخطط الصخيرات » الرامي الى جعل منطقة الصخيرات مدينة نموذجية تشتمل على أكثر من ألف قطعة سكنية ، يجري الآن توزيعها على الأهالي بأسعار رمزية . كما ستضم مختلف الدوائر الحكومية والمرافق العامة ، علاوة على فندق سياحي ، ومتحف ، وناد ، وسوق ، ومدارس . وتبلغ المساحة التي يغطيها مشروع « الصخيرات » ٢١٣ هكتارا .

ويوجد في العلا مستوصفان . كما يوجد في كل من « مغيراء » و « الحجر » و « أبي راكة » مركز صحي . ويقوم الآن في حي « الصخيرات » مستشفى العلا الحديث الذي بدئ في انشائه عام ١٣٨٨هـ ، وبلغت تكاليفه ما يقرب من مليون ونصف المليون من الريالات .

الحركة الأدبية

اذا كانت العلا تزهو بآثارها الجليلة وبساتينها النضرة ، فانها كذلك تزهو بحركة فكرية نامية يغذيها بفكره النير شباب ناهض يستمد من الطبيعة الخلابة والتراث العريق ما يذكي أوارها . ففي هذه البلدة عدد كبير من حملة الشهادات الجامعية . وهناك من لم تسعفهم الظروف بمتابعة دراساتهم ، ومع ذلك فانهم يمتازون بثقافة واسعة لانكبابهم على المطالعة . ومنهم الشباب العصاميون الذين لم تقعدهم مهام وظائفهم والمشاكل الحياتية المتشعبة عن اللحاق بركاب العلم والمعرفة ، فجدوا وثابروا حتى استطاعوا الحصول على المراتب العليا .

ومن المظاهر المحببة في العلا أن أبناءها المغتربين ممن يشغلون مناصب في أجهزة الدولة المختلفة يعودون اليها في الصيف ، ليتمتعوا بمناخها ويستمتعوا ببساتين رباها وينعموا بلقاء ذويهم وأصدقائهم . وغالبا ما تعقد الندوات الأدبية وتقام



حوت معظم البيوت في مدائن صالح رفوفا منحوتة في جدرانها ، وقد كانت تستخدم سكنى لأصحابها من الأحياء ومقابر لهم بعد انتقالهم الى الدار الآخرة .



« محطة الحجر » وفيها بعض القاطرات القديمة لا تزال تشهد بماضيها المجيد .

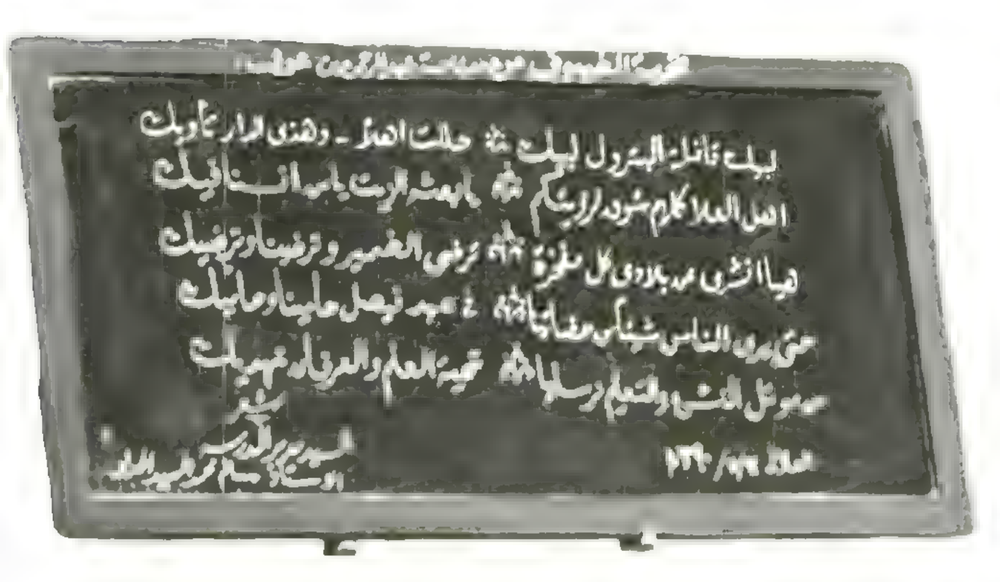
حفلات السمر في مثل هذا الموسم من كل عام .
ويصور لنا الأستاذ « سالم الحداد » من أبناء العلا التئام الشمل ولقاء الأحبة بشعر كله عذوبة ورقة ، فيقول :

الصيف يجمع والشتاء يفرق
هذي ظروف الناس تخفى وتشرق
فالسهل يضحك والجبال تزينت
والغصن يزهو والطيور تزقزق
والخير وافي والشرور تطايرت
وعلى الوجوه البشر يعلو مشرق
والبيد تفخر بالضيوف وتحتفي
والغصن مبتسم وحتما مورق

وهناك شاعر آخر من أبناء العلا تفاعل مع الطبيعة الحلوة ، فجاد بأعذب الألحان ، ذلك الشاعر هو « سليمان المطلق » ، وحسبنا هنا أن نقتطف بضع زهرات من حديقته الغناء :

بلابل غردت في ربوة الوادي
بين الكريم وبئر الشيخ والعادي
ترجع الشدو موسيقى منمقة
كأن في شدوها مليون عواد
أجارة الحزم هذي الورق ما صدحت
في مطلع النجم والسمار في النادي
ألا وقد هاجها وجد فتيمها
والوجد من عهد نوح تيّم الشادي
لم تملك العين من تغريدها فهمت
كالمزن منحدر من سفح حمادي

المدارس في العلا تستقبل النشء الصاعد ورجال الغد المشرق .



الأستاذ الشاعر سالم الحداد مدير مدرسة « عبد الرحمن بن عوف » حيا القافلة بهذه الأبيات الشعرية .

التعليم في منطقة العلا

ليست هذه المنطقة حديثة عهد بالتعليم ، اذ يرجع تاريخ وجود المدارس في العلا الى عام ١٣٢٨هـ حينما افتتح الشيخ شريف من بلدة الوجه أول كتّاب في مسجد يسمى « زاوية المغاربة » في البلدة القديمة لتحفيظ القرآن وتعليم مبادىء القراءة والحساب والخط . ويذكر أحد المعمرين في العلا أن الشيخ كان يتلقى صاع قمح أو نحو ذلك من التلميذ لقاء تعليمه . وقد بقي هذا الكتّاب قائما حتى أسست الدولة العثمانية مدرسة نظامية عام ١٣٣٠هـ كان مديرها علي جنيد من المدينة المنورة . ولا يزال أبناء من تلقوا العلم في هذه المدرسة يحتفظون بالشهادات التقديرية « الأفرينات » التي حصل عليها آباؤهم للذكرى . وبقيت هذه المدرسة تؤدي رسالتها حتى « سفر برلك » عام ١٣٣٥هـ ، ثم تحولت الى مدرسة أهلية يرعى شؤونها شيوخ من العلا . وفي سنة ١٣٤٨هـ تأسست « المدرسة السعودية » الابتدائية الأولى في العلا ، وهي أول مدرسة يتم تأسيسها في شمالي المملكة العربية السعودية . وقد أطلق عليها عام ١٣٨٩ اسم « مدرسة عبد الرحمن بن عوف » . وافتتحت مدرسة ابتدائية أخرى عام ١٣٦٤هـ ، هي « مدرسة المنشية » . ثم أنشئت مدرسة متوسطة عام ١٣٧٦هـ ، ومدرسة ثانوية عام ١٣٩٠هـ دمجت مع المدرسة المتوسطة تحت اسم « مدرسة موسى بن نصير » . والى جانب مدارس العلا هناك ثلاث مدارس ابتدائية كاملة في كل من الحجر والعذيب ومغيراء . وحري بالذكر أن طلاب البادية من الهجر البعيدة يتلقون اعانات شهرية تمكنهم من مواصلة الدراسة في مدارس العلا .

ولم تكن الفتيات في العلا أقل شغفا بالعلم والمعرفة من الأبناء ، فكانت في العلا مدرسة أهلية قبل افتتاح المدارس الحكومية للبنات عام ١٣٨٠هـ. وتأسست أول مدرسة حكومية للبنات في العلا عام ١٣٨٢هـ ، وفي عام ١٣٨٨هـ افتتح معهد اعداد المعلمات المتوسط في العلا . وقد قامت الحكومة في عام ١٣٨٩هـ بانشاء مبنى ضخم في محلة « الجديدة » على ربوة يطل منها على بساتين الوادي ، بلغت تكاليفه ما يربو على مليون ريال ، ويضم المدرستين المذكورتين ومعهد المعلمات تحت ادارة واحدة .

رائحة زكية . والعشر ، والرتم ، والطرفاء ، والحماط ، والاثل ، والعوسج . كما تنبت أثر نزول الأمطار والسيول أعشاب برية كثيرة ، يتخذ من بعضها الأدوية الناجعة ، منها : الشيح ، والحرمل ، والبعيثران ، والجعدة ، والقيصوم ، والأقحوان وغيرها . ومن الطيور التي يكثر وجودها في المنطقة : الغراب ، والحمام القمري ، ودجاج العين ، والحباري ، والقطا ، والهدهد ، والحجل ، والبلمص . كما تكثر الأرانب ، والغزلان ، والبدّن ، وهو نوع من الوعول الضخمة توجد في حرة العويرض ووادي الجزل ، والذئاب الكاسرة ، والضباع ، والنمور ، والثعالب ، والقنافذ ، والوبر .



« كرة الطائرة » من وسائل اللهو البريء تمارسها فرق رياضية يشكل معظم أفرادها طلبة المدارس في العلا .

أرض خصبة وزراعة ناجحة

وادي القرى مشهور بزروعه ونخله منذ القدم . ويرجع ذلك الى خصب تربته الرسوبية وتدفق السيول عليه من الجبال المحيطة به . وكانت الزراعة قديما ، وما زالت ، تعتمد على العيون الجارية العديدة . ويروى أن معاوية بن أبي سفيان مر بوادي القرى ، فتلا قوله تعالى : « **أتتركون في ما ههنا آمنين . في جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم .** » ، ثم قال : هذه الآية نزلت في أهل هذه البلدة ، وهي بلاد ثمود ، فأين العيون ؟ فاستخرج له رجل ثمانين عينا . وقد نضب ماء كثير من العيون ، ومع ذلك لا تزال المياه تتفجر من عيون كثيرة ، منها : تدعل ، وهي من أقدم العيون وأقواها ، والزّهرة ، والفتح ، والصالحية ، والسالمية ، وسهلة ، والسعة ، والمبارك ، والعطية ، والجادة ، وأم الليف ، وضبعة ، والشرقية ، وكريمة ، وصلاح ، والعوجا ، والبحرية ، والفرات ، والحميدية ، والحزم ، والمنصورة ، ومقبلة ، والمزاحمية ، والعلوية . هذا وقد أخذت تظهر في الآونة الأخيرة الآبار الأرتوازية والعادية التي أسهمت في توسيع الرقعة الزراعية في المنطقة . وقد أوجدت وزارة الزراعة والمياه في عام ١٣٨٣هـ وحدة زراعية تقوم بتقديم الخدمات للمزارعين . من فنية وارشادية وبيطرية ووقائية ، كما تقوم بانشاء مزارع نموذجية يقتدي بها الفلاحون . وفي بداية عام ١٣٩٠هـ تأسس في العلا بنك التسليف الزراعي الذي يعمل ، بالتعاون مع الوحدة الزراعية ، على توسيع المساحة المزروعة . وذلك بتقديم مساعدات عينية تشمل المكائن والأشتال وحفر الآبار الأرتوازية ، ومساعدات مالية على شكل قروض . هذا وقد قام أبناء العلا بتكوين جمعية تعاونية متعددة الأغراض تحت اشراف وزارة العمل والشؤون الاجتماعية تعمل على توفير قطع غيار ماكنات الري والمعدات الزراعية والأسمدة للمزارعين بأسعار زهيدة .

وأهم أشجار المنطقة ، عدا النخيل ، أشجار الحمضيات ، ثم أشجار الفاكهة . وأهم أنواع تمور الوادي : الحلوة ، والقعيسة ، والسكيكرة ، والطيبة ، وزينة العساف ، وكسبة الجمعة ، وكسبة التيامنة ، وبرنية بنات سعد ، والعسيلة ، والهبرية ، وبيضة منيع ، والوخرية ، وقمرة الدين ، والعنبرة ، واللبانة ، ودقلة نور ، والدباسة ، وصباح الخير . وقد أخذ أهل العلا يهتمون بزراعة الحمضيات على نطاق واسع نظرا لما تدره عليهم من أرباح وفيرة . وأهم أشجار الحمضيات هي : البرتقال ، واليوسفي ، والبوملي ، والأترنج ، وليمون بنزهير ، والليمون الحلو والحامض . وتجري تعبئة محاصيل الحمضيات في صناديق خشبية بعد ختمها بعلامتها التجارية « انتاج العلا » وتصدر الى المدن المجاورة . ومن الأشجار الأخرى الناجحة في الوادي الزيتون ، والعنب ، والرمان ، والتين ، والجوافا . وبالاضافة الى ذلك تزرع أنواع من الخضراوات والحبوب ، وكذلك البرسيم الذي يغطي مساحات واسعة .

وتنمو في الجبال والأودية والشعاب أشجار برية كثيرة ، منها : السمر ، والطلح ، والسيال ، والغضا ، والبان ، ويستخرج منه دهن لذيذ ذو

تقاليد وعادات

تكثر في العلا اقامة حفلات السمر التي تتخللها المساجلات الشعرية والرقصات الشعبية والعزف على العود والسمسمية . ومن الرقصات المعروفة التي يمارسها العلاويون : السامر ، والمزمار ، والدربكة ، والعرضة . ففي السامر يجلس الرجال في صفين متقابلين ويحمل أفراد أحدهما الدفوف والطبول . ويرددون أشعارا قديمة تتمشى مع اللحن ، وهي غالبا ما تعبر عن النخوة والشهامة العربية والكرم الأصيل . أما المزمار فهو شبيه بالسامر ، بيد أنه يعتمد على حركات سريعة وترداد كثير . وفي الدربكة يستعمل المزمار الشعبي وآلة موسيقية تعرف « بالموزيكا » . وهذه الرقصة تعتمد فقط على الموسيقى . وفي الأعياد يجتمع الأهالي ويقومون برقصة العرضة التي يستعمـل فيها « الزير » ، وهو شبيه بالطبل ، يؤخذ من جذع نخلة ويجوف ويغطى طرفه العلوي بجلد البعير .

أما أشهر الأكلات الشعبية في العلا فهي : الكبـة ، والمصفّت ، وهي عبارة عن أرغفة رقيقة تمسح بالفريك المطبوخ باللحم وتصف فوق بعضها البعض ، والمرقوق ، وحلوى الحيسة يعدونها في الأعياد والأعراس أو في مناسبات خاصة ، وهي تتألف من التمر والسمن والدقيق والحبل واللوز والبيض . هذا . ويقضي أهالي العلا عطلهم وأعيادهم في الريف الجميل للترويح عن مشاغلهم بما يسمونه « القيلة » . ويعقدون ندوات السمر في العراء .

... تلك هي العلا ذات الماضي العريق والحاضر المشرق والمستقبل الزاهر ■

سليمان الصالح

تصوير : أحمد منتاخ

دور الأمل في الخبرة البشرية

اننا حين نتحدث هنا عن الأمل فاننا لا نتحدث عن حل نظري لمشكلة فلسفية ، بل نحن نتحدث عن خبرة وجودية تتكشف من خلالها قيم خلقية أساسية . واذا كان من غير الممكن ، ان لم نقل من المحال ، قيام أخلاق بمعنى الكلمة على دعامة من اليأس المطلق ، فذلك لأن الأخلاق — بطبيعتها — ثقة ضمنية في امكانية التحسن ، وايمان خفي بامكان انتصار المثالية . وليس أيسر على الانسان ، من الاستجابة لداعي اليأس ، بدعوى أنه لا صَلاحَ للانسان ، وأنه لا أمل في ترقي الأخلاق البشرية الرقي كله ، ولكن من الواضح أن مثل هذا الاستسلام هو في صميمه قضاء مبرم على الوجود البشري بأسره . وآية ذلك أن استمرار بقاء الانسان على وجه البسيطة حتى اليوم شاهد على انه قد وجد سبيلا الى القضاء على اليأس بصورة أم بأخرى ، كما أن رفضه للجمع المطلق بين الواقع والمثل الأعلى دليل ساطع على أنه ما يزال يأمل أن يكون مستقبله خيرا من ماضيه وحاضره . واذا كانت خبرة الالم شاهدا حيا على ارتباط الاخلاق بالعسر والضيق والشدة ، فان خبرة الأمل دليل قوي على اقتران الأخلاق بالثقة والرجاء والايمان . فليس ثمة أخلاق تخلو تماما من كل مثل أعلى : لأنه لو وجدت مثل هذه الأخلاق ، لما كان أمامها أفق تتحرك صوبه أو هدف تسعى اليه . ولكن الأخلاق بطبيعتها اتجاه نحو المستقبل وسعي من أجل تحقيق المثل الأعلى . فالأمل خبرة معاشة تعني أن بصر الانسان متجه نحو الأمام ، وان جهده معبأ من أجل تجاوز الحاضر ، وبالتالي فانه لا حياة للموجود الاخلاقي الا بالأمل وفي الأمل .

ان الكثيرين ليظنون أن الأمل خبرة سيكولوجية خاصة لا تنطوي على أية دلالة أخلاقية ، ولكن الحقيقة أن الأمل يكون جوهر الخبرة الخلقية لأنه يمثل النسيج الأصلي للحياة الخلقية من حيث هي سعي دائب نحو تحقيق المثل الأعلى . ولو وقع في ظن الفرد انه لا مجال لتطعيم الواقع بالمثل الأعلى أو أنه ليس ثمة موضع للبحث عن قيم تغير من دلالة الوقائع ، لما كانت هناك حياة خلقية على الاطلاق ، وبالتالي لما كان ثمة طابع أخلاقي يسم بصبغته الخاصة كل وجودنا البشري . ولكن من المؤكد أن الموجود الاخلاقي لا يمكن أن يحيا الا على هذا الايمان الضمني بامكان تحقيق المثل الأعلى وضرورة العمل على تغيير الواقع . وحين يفقد الانسان كل أمل في تحقيق امكانيات جديدة أو اكتشاف قيم ظلت مجهولة حتى هذه اللحظة ، فانه يكون عندئذ قد أعلن نكرانه لكل ابداعية خلقية . والمتأمل في تاريخ البشرية يلاحظ أن العباقرة والمصلحين ورجال الأخلاق لم يكونوا مجرد مفكرين آمنوا ببعض المبادىء ، بل كانوا أولا وقبل كل شيء عمليين اتخذوا من الأمل قوة جبارة لزحزحة الجبال . ولا غرو ، فان الأمل يسير دائما جنبا الى جنب مع الثقة والايمان والارادة الفعالة . ولسنا نتحدث هنا عن الأمل الحالم أو الواهم ، الذي يعيش على خيالات الطفولة أو تهاويل أحلام اليقظة ، بل نحن نتحدث عن الأمل العامل أو المبدع الذي يعرف كيف يتجه نحو المستقبل في ثقة وعزم وتصميم .

والحق أن الأمل اعتراف بأن الأفق مفتوح واقرار بأن المستقبل سيكون خيرا من الماضي ، وليس معنى هذا أن الأمل بطبيعته تهور واندفاع ، بل معناه أن الأمل في صميمه تطوير وابتكار . واذا كان لخبرة الأمل دور كبير في حياتنا الخلقية ، فذلك لأنها تكشف لنا عن امكانية التغير ، وتضع نصب أعيننا قيما تجتذبنا اليها وتدعونا الى العمل على تحقيقها . وهنا قد يعمد دعاة التشاؤم الى صبغ كل مسعى اخلاقي بصبغة الوهم أو الخيال ، وكأن المثل الأعلى بطبيعته ضرب من المحال أو انه غير عملي وبعيد المنال . ولكن خبرة الأمل هي التي تجيء فتذكرنا بأن الأمل انطلاق نحو آفاق المستقبل البعيد وانعتاق من قيود الواقع المحدود . وليس من شك في أننا حينما نفقد كل ثقة في أنفسنا وفي الآخرين ، فاننا قد نجد أنفسنا مدفوعين الى الشك في كل تقدم أخلاقي والارتياب في

بقلم الدكتور زكريا ابراهيم

كافة المحاولات المبذولة من أجل اصلاح كل من الفرد والجماعة . وكثيرا ما تكون فترات الحروب والأزمات والنكسات مواتية لأمثال هذه الدعوات التشاؤمية ، ولكن رجالات الأخلاق يعلمون حق العلم أن الحرب نفسها قد تكون فرصة طيبة لانبثاق الكثير من القيم وتولد العديد من الآمال الجديدة . فليس ما يبرر اليأس من صلاح الانسان ، طالما كان هناك مستقبل مفتوح ما يزال حافلا بالامكانيات . وربما كانت خبرة الأمل هي التعبير الوجودي الصريح عن هذه الثقة الانسانية العميقة بمعنى الحياة ، وكأن الموجود البشري يشعر في قرارة نفسه بأن العبث أو اللامعنى « Absurd » لا يمكن أن يكون هو الكلمة الأخيرة في دراما الحياة .

والحق أن الموجود البشري لا يحيا ، الا بمقتضى فعل دائب من أفعال الأمل هو ذلك الفعل الذي يعبر عن ايمانه الحي بقيمة الوجود . فليس اليـــأس سوى الواجهة الخلفية لمـــا اصطلح بعض الفلاسفة على تسميته باسم « انفعال الموجود بالحياة » أو « تعلق الكائن البشري بالوجود » . ومعنى هذا أن اليأس نفسه لا يخلو من تعبير عن حب الحياة ما دام الانسان الذي يمر بتجربة اليأس انسانا مريدا يسعى جاهدا في سبيل التحرر من مظاهر الألم والقلق والصراع . وان الحرية لتنطوي في أعماقها على امكانية انكار ذاتها ، وما هذه الامكانية سوى ما أطلقنا عليه اسم تجربة اليأس . واذا كانت هذه الامكانية أمرا لا سبيل الى استبعاده ، فذلك لأنها تمثل الثمن الضروري الذي لا بد من دفعه ، ان لم نقل الضريبة الباهظة التي لا بد من تقديمها ، نظير الحصول على تلك الميزة الكبرى التي نتمتع بها . وربما كان « جبرييل مارسل » أبعد فلاسفة الفكر المعاصر عن الدعوة الى التشاؤم أو المناداة بفلسفة اليأس ، ولكننا نراه يقرر مع ذلك أن اليأس قد يحصل دائما وباستمرار ، وأنه يتخذ أشكالا عديدة لا حصر لها ، ولكن من الممكن دائما ، أن ينتصر المرء على اليأس بفضل ارادته وتصميمه .

والواقع أن العبث ليس بأي حال من الأحوال واقعة موضوعية يلتقي بها المرء في صميم خبرته ، بل هو صفة أو كيفية « Quality » لا توجد الا اذا أردنا لها نحن أن توجد ، وذلك بمقتضى اختيارنا الحر . ومعنى هذا أن العبث يكشف عن عمى ارادي يمنع صاحبه من رؤية تلك القيم التي لا تكف عن الانبثاق من أحضان العالم والتاريخ . وليس الأمل مجرد واقعة محضة ، بل هو كسب تحققه الحرية الابداعية حين تعرف كيف تحيل المثل الأعلى الى واقعة ، وكيف ترقى بالواقعة في الوقت نفسه الى مستوى المثل الأعلى ، وهي تعلم أن المستقبل لا بد أن يبقى مفتوحا أمامها وتدرك أنه لا بد لكل شيء من أن يقبل التحقق عن طريق الجهد الايجابي الفعال . واذا كان بصر الحرية الابداعية موجها دائما نحو الأمام ، فذلك لأنها تتحرك دائما في اتجاه المثل الأعلى الذي لا بد لها من العمل على تحقيقه . وهي لا تعشق الا القاصي البعيد ، لأنها لا تصبو الا الى القيمة أو المثل الأعلى أو الغاية القصوى . وهذا هو السبب في أنها تستشعر دائما رغبة عارمة في العمل من أجل المستقبل ، لأنها تدرك أن الأمل لا ينصب الا على المستقبل . وهل يمكن أن يقوم أمل لو كانت الحياة مجرد ماض قد انقضى ، أو حاضر هو في طريقه الى الزوال ؟

ان مشاعر القلق والعبث والغربة والضياع والفراغ واليأس مشاعر متواكبة ، قلما يسير الواحد منها بمفرده ، وذلك لأن اليأس هو النتيجة الطبيعية التي لا بد من أن تفضي اليها حياة خاوية قد ارتفع عنها كل ايمان ضمني بالقيم . وليس أيسر على الانسان من أن يستسلم لنداء العبث لكي لا يلبث أن ينحدر على طريق اليأس ولكن ليس في وسع أي اتجاه فلسفي — اخلاقي أن يغلق الدراما البشرية على نفسها ، لكي يجعل منها قصة تافهة فان كل حياة انسانية سوية لا بد من أن تجد لنفسها في صميم نشاطها العملي حلا واقعيا للوجه القاتم للمشكلة الخاصة بها . ولعل هذا ما عناه الطبيب الفيلسوف « ألبير شفيتسر » حينما قال « انني اذا كنت متشائما نظريا ، فانني متفائل عمليا » .

والحق أن الحياة وحب الحياة أمران لا ينفصلان : فنحن لا نملك أن نعيش دون أن نتفتـــح للحياة ، بل دون أن نكتشف كل يوم أسبابا جديدة للحياة وحب الحياة . وعلى حين أن اليأس يغفل الكائن البشري على نفسه لكي يجعل منه ذرة روحية تافهة لا تحيـــا الا مع مشاغلها الخاصة ومشاكلها الذاتية ، نجد أن الأمل يحطم قيود الانسان الذاتية الضيقة ، لكي يفتح أمامه أسباب التواصل مع العالم والآخرين . وعلى حين أن الانقسام والانفصال والعزلة سمات ثلاث تسير دائما جنبا الى جنب مع القلق والألم واليأس ، نجد أن التكامل والتواصل والمشاركة : سمات أخرى تسير دائما جنبا الى جنب مع السكينة والغبطة والأمل . وربما كان الكائن البشري أحوج ما يكون اليوم الى الانتصار على أسباب القسمة والعزلة والانفصال حتى يكفل لنفسه حياة سوية لا تمزقها عوامل اليأس والقلق والألم . وليس من شك في أن العالم المعاصر ، الحافل بمظاهر التخصص والتجريد هو الذي عمل على فصم عرى الوحدة التي كانت تربط الانسان البدائي بالعالم . ومن هنا فقد فطن علماء النفس وفلاسفة الأخلاق الى ضرورة العمل على استعادة أسباب اتصال الانسان بالعالم ، حتى يضمنوا للكائن البشري ضربا من التكامل والتواصل بينه وبين العالم . وربما كان من بعض مزايا خبرة الأمل أنها تعيد للانسان وشائجه القوية بالعالم والآخرين ، فتضمن له ضربا من الثقة بالمستقبل وبالآخرين . وحين تتحقق الوحدة بين العالم الأكبر والعالم الأصغر فمن المؤكد أن تكتسب الحياة معنى في نظر الانسان . ولا غرو فان تجربة الأمل تزود الكائن الاخلاقي بطاقة روحية هائلة فتزيد من ايمانه بالخالق ثم بالنظام الاسمي للكون « Higher Order » وقد أتى الاسلام ليدعو الى الأخذ بأواصر الأمل والتفاؤل ونبذ القلق واليأس والانعزال .

« لا تقنطوا من رحمة الله » ■



بقلم الاستاذ ابراهيم المصري

كان والد « اجلال » صديقا لي . فعرفت ابنته فتاة في العاشرة من عمرها . فراعني جمالها الباهر . وألقى في روعي أن الحظ السعيد لا بد أن يكون من نصيبها . ثم انقطعت الصلة بيني وبين أبيها أعواما . ثم التقيت بالفتاة اتفاقا منذ أيام . فذهلت اذ أبصرتها شاحبة الوجه ، غائرة العينين ، ضامرة التقاطيع . فاستفسرتها عن حياتها . فانكمشت وترددت . ثم برحت بها اللوعة فأفضت الي بما وقع لها .

قالت اجلال :

كنت كما تعلم فتاة جميلة . بل كنت أوفر أخواتي الثلاث حسنا ، وأرقهن طبعا ، وأذكاهن فكرا ، وأغزرهن ثقافة واطلاعا . ولكني كنت ، كما تعلم أيضا . قد نشأت في وسط فقير . ولم يكن في مقدور والدي المدرس المتواضع أن يحيا حياة الجاه والعز التي كان يحياها شقيقه الأكبر التاجر الثري .

وكنت أنا لفرط اعتدادي بنفسي . واحساسي بتفوقي . وبالفارق العظيم بين الحياة في بيتنا والحياة في بيت عمي . أشعر شعورا قويا أنني لا أعيش في الجو الخليق بي . ولا أتقلب في الاطار الجدير بجمالي وذكائي .

كنت محنقة ساخطة . ناقمة وثائرة . متلهفة وظمأى .

كنت أرى ابنة عمي « سهام » غنية ودميمة . وأرى نفسي فقيرة وجميلة . فيحز الحنق في صدري ، وأستغرب من القدر كيف يعطي الحلق لمن لا أذن له ..

على أني برغم النفور الطبيعي الذي كنت أحس به نحو سهام ، وبرغم كبري وزهوي واحتقاري مظاهر الجاه والسلطان ، كنت مولعة أشد الولع بزيارة بيت عمي .

فهناك كنت أمرح في الأبهاء الواسعة . وأتطرح الى السرر الناعمة . وآكل اللحم والدجاج ، وأقضي النهار بطوله أستمع الى الراديو أو أشاهد التليفزيون . أو أطلق العنان لمشاعري المكبوتة ، فأندفع وأغني أغنية شائعة بصوتي الخشن الأبح السقيم . فتضحك سهام . وأبتئس أنا . شعورا مني بأن حظي قد يكون كصوتي . وأن أحلامي الكبيرة الرائعة لن تتحقق أبدا .

وكان عمي يحبني . وكانت زوجته معجبة بجمالي ، مأخوذة برشاقتي ، مفتونة بسحر حديثي ، تود أن أزورها كل يوم ، عسى أن أحرك ابنتها الثقيلة الدميمة ، وأوقظها من همودها ، وأخلع عليها شيئا من روائي .

بيد أن سهام كانت تتباعد عني وتتحاشاني . كنت أحسدها على غناها ، وكانت تحسدني على جمالي . وكان لا يكاد يدخل البيت شاب غريب ، حتى تلوي فجأة عني ، وتشمخ بأنفها عليّ ، وتحاول أن تصرفني ، وهي تضحك ضحكة خبيثة . وتعرض ساخرة بفقري ! . وكنت أنا أتألم ولكني كنت أغيظها وأبقى ، ورغبة مني في تأديبها كنت أسرف في تحية الزائر الغريب ، وأفرط في مجاملته والتودد اليه ، ولا أفتأ أحادثه وألاطفه حتى ينصرف بجمعه اليّ ، وينسى نفسه وينسى سهام ..

وهكذا لمست في ضوء التناقض الصارخ بيني وبين ابنة عمي ، تأثيري العظيم على قلوب الشبان وان كنت فقيرة خاملة .

شعرت أن أعلى الرجال مكانة . يتقربون في شغف اليّ ، ويتهافتون في لهفة عليّ . فساءلت نفسي : أليس من الحماقة أن أظل حيث أنا ، كئيبة خاملة . في حين أن في مقدوري أن أظفر بالحياة الرائعة الخليقة بشبابي وجمالي ؟...

ولعبت برأسي النشوة ، وأخذتني عاطفة الطمع ، وملكتني أخيلة الجاه . فبدأت أفكر في استخدام جمالي وذكائي للتأثير في الرجال الحائمين حولي ، علّي أعثر من بينهم على سري وجيه يتزوجني ،


ع. قباني

ويرفعني بين يوم وليلة الى مصاف السيدات المترفات ...

فكرت في المستقبل وأغفلت الحاضر ... بهرتني الحياة في بيت عمي ، وأمضني من سهام أن تكون أسعد مني ، فأردت أن أكيدها ، وأن أتفوق عليها . فمضيت أطلب الجاه والعز ، وتناسيت العاطفة !..

وكنت في تلك الفترة محبوبة ، وكنت أنا أيضا أحب .

كنت أحب شابا من بيئتي ، موظفا صغيرا في احدى الشركات ، شابا فقيرا في اعتزاز ، جميلا في تواضع ، وفيا في صراحة وبراءة ونبل . أحببته بكل قوى نفسي ، بكل تصورات حداثتي ، بكل خفقات قلبي ودمي . أجل أحببت «عاطف» وأحبني ، وكنا قد تعاهدنا على الزواج بعلم من والدينا . فلما أسرفت في زيارة بيت عمي وأذهلتني الحياة هناك وأسخطني حظ سهام وأثارني ، تحول قلبي بالرغم مني . وشعرت تحت تأثير آمالي ومطامعي أن لا مفر لي من أن أغفل عاطفا وأنساه .

وأعرضت بالفعل عن عاطف . فشقي الشاب وتعذب عذابا مريرا ، وانطوى على نفسه ، وأصيب بشبه سوداء حالمه ، وبات منفردا مستوحشا نفورا . لا يغادر بيته الا نادرا ، ولا يتصل بقريب أو صديق . فتعذبت أنا أيضا ، وانخلع قلبي شفقة عليه وحبا له ، وكدت أتحول ثانية وأرتد اليه . ولكن سهام خطبت بغتة ، وكتب كتابها ، ثم اقترنت بشاب ملحوظ المكانة وجميل ، أغضى عن دمامتها وطمع في مالها .

وفي ليلة العرس ، وسهام جالسة على المنصة بجوار عريسها ، مشرقة الطلعة ظافرة النظرة ، تاه عقلي ، وجف حبي ، وتبددت شفقتي ، وآليت على نفسي أن أضحي بعاطف وان كنت أعلم علم اليقين أنه الرجل الوحيد الذي حقا يحبني !..

وانطلقت في سبيلي منتهزة فرصة العرس العظيم ، فتعرفت الى بعض أرباب الأسر الكبيرة ، وما زلت بالأثرياء منهم ، أقربهم وأجاملهم ، أداهنهم وأتملقهم ، حتى عثرت من بينهم آخر الأمر على ضالتي المنشودة ممثلة في شخص (رشاد بك)...

وكنت أعلم أن رشاداً كان قد تزوج امرأة جميلة ، هامت به وعذبته بغيرتها الجامحة ونزعة الحيازة والتسلط التي تمكنت منها ، فعاش معها أكثر من عشرة أعوام ثم ضاق ذرعا بها وطلقها .

وكان رشاد هذا رجلا جاوز الخمسين ، يكبرني بأكثر من ثلاثين سنة . ولكنه كان سريا وجيها ، يملك أربع عمارات في القاهرة وعددا كبيرا من أجود الاطيان في المنوفية . وكان مديد القامة ، أسمر اللون ، واسع الحدقتين ، مكتنز الخدين ، صارم المظهر والخلق ، وخط الشيب شعره ، وتساقطت كتفاه ، ولاحت عليه بوادر الكهولة . بيد أنه كان يجمع الى الصرامة في الخلق ، خفة في الروح ، ومرحا في الطبع ، وأنسا في المعاشرة . فلم أكترث أنا لصرامته ولم أتبين ما تخفيه تلك الصرامة من كبر وقسوة . فأخذت بثرائه ومرحه ، وانجذبت اليه ، ورضيت بأن أضحي بعاطف من أجله ...

ورأى هو فيّ فتاة متألقة النضرة في ربيعها الزاهر . فافتتن بي وهو في خريف العمر ومغرب الحياة ، وتقرب اليّ ملهوفا ، ولم يتردد وصارحني برغبته في الاقتران بي .

وكنا اذ ذاك في مطلع الصيف ، فدعانا أنا وأسرتي الى قضاء شهرين في بيت له في الاسكندرية حيث نتم خطبتنا ونعد معدات الزواج .

ودخلت بيت رشاد واذا بي في قصر لا في بيت ، في قصر يبدو حياله بيت عمي وكأنه كوخ . قصر يتوه الانسان في رحباته ، عــامر بأفخم الأثاث وأبهى الرياش وأندر الرسوم والتحف قصر أحلامي الذي طالما تهافت عليه تصوري الجامح المتقد المخبول .

وكان رشاد يحملنا في سيارته أنا وأفراد أسرتي ويطوف بنا الاسكندرية ، مغدقا علينا شتى الهدايا ، مغرقا في ملاطفتي والتودد اليّ وكسب حبي . وكانت أخواتي الثلاث وقد بهرهن قصره وسخاؤه ، يحسدنني عليه ويشجعنني على الزواج به . أما أنا فقد طرأ على نفسي بغتة ما لم أكن أتوقعه أبدا . كنت كلما تمتعت بما يغدقه عليّ رشاد ، وكلما تأملت قصره وتجولت فيه وتصورت أنه سيصبح غدا ملكي ، أتصور نفسي ملكا لهذا الكهل الذي هو في مثل سن أبي . فيروعني ما أقدمت عليه ، ويأخذ الاشمئزاز بمخنقي . فأتمثل على الفور عاطفا فيهولني تركي لــه وتضحيتي به ، ويثب قلبي فجأة في صدري ، ويهفو بالرغم مني اليه ..

وبدأت أراجع فكري وأحاسب ضميري وأتعذب . وكان عذابي نابعا من تركي عاطفا ومن شعوري بأني بهذا الزواج أبيع نفسي وأتدهور وأنحط .

واشتد بي العذاب ، فلم أطق . وفي ذات صباح حزمت أمـــري ، واستجمعت قواي ، وصارحت أهلي بأن لا بد لنا من قطع الصلة برشاد والعودة فورا الى القاهرة . فغضب والدي ، وذهلت أمي وأخواتي ، واستنكروا جميعا تحولي ، ووقفوا صفا واحدا في وجهي . ولكني ثبت وصممت . فامتثلوا آخر الأمـــر مكرهين وآسفين ...

أما رشاد فقد بهت ودهش ، ثم حنق وثار ، ثم نزل عن كبريائه لأول مرة ، واستعطف واسترحم والتمس وتوسل ، في ذلة وصغار .

ولما أحس أنه لن يستطيع أن يثنيني عن عزمي ، حدق فيّ بغتة وأبرقت عيناه ثم حنى رأسه ممتثلا ، وتركنا نرحل ...

وما أن عدت الى القاهرة حتى اتصلت بعاطف ، واعترفت له بذنبي ، وأعربت له عن خالص ندمي ، ومضيت أستغفره جاهدة وأنا أتفرس فيه وأرتجف وأخشى أن ينبذني . ولكنه نظر اليّ في أسى ، ثم ثبت عينيه في عيني كأنه يريد أن يستشف جوهر نفسي ويستوثق من صدق توبتي وندمي . وفجأة انبسطت أساريره ومد يده اليّ وصافحني .

فاستطار لبي فرحا وأيقنت أنه قد صفح عني .

وكان رشاد في غضون ذلك لا يفتأ يتعقبني في القاهرة ، ويستفسر الأقارب والأصدقاء عني ، ويبعث الى والدي برسائل يرجوه فيها أن يستخدم سلطانه الأبوي ويحاول أن يؤثر فيّ ويقنعني .

وكنت أنا وقد عقدت العزم على التزوج بعاطف ، أحس مع ذلك أني أعيش بين مد وجزر من مشاعري ، تارة أفكر في رشاد فأعود وأحن الى جاهه وثرائه ، وتارة أفكر في عاطف وفيما استقرت عليه ارادتي ، فاستنكر كيف فكرت في رشاد ، وأحتقر ذاتي ، ثم أرتد الى عاطف وأستحضر طيفه وأناجيه في عزلتي .

ولكي أمتحن أيضا نفسي وأطمئن الى ما عزمت عليه ، تربصت بعاطف عصر يوم وهو خارج من منزله ، واستخفيت خلف العمارة المواجهة لبيته ، وتأملته ، فألفيته ممشوق القامة ، شامخ الرأس ، وطيد البدن ، عليه حلة من فتوة متوثبة مقرونة بذلك الاعتزاز الأبي الذي خلبني فيه . فتأكدت من ميلي اليه وازددت صلابة وثقة وعزما على الزواج منه .

وبعد بضعة أسابيع تم زواجنا ...

ويا لها من فرحة عظيمة تلك التي شعرت بها يوم تزوجت بعاطف !... أحسست أني قد

استعدت كرامتي ، وتطهرت من أطماعي ، وأطلقت من عقالي ، وخرجت من سجني هائمة على وجهي ، أتنسم الهواء الطلق لأول مرة في حياتي !... أحسست أني امرأة حرة عزيزة ، وهبت ذاتها بمحض ارادتها ، فاحترمت شخصها ، ولم تبذل نفسها لقاء أي غرض مادي وضيع ... وأسعدني أن أمنح الحب النقي من أجل حب نقي ، والولاء الصريح من أجل ولاء صريح ، والثقة المطلقة من أجل ثقة مطلقة ، والحياة من أجل حياة تبادلني هي الأخرى نفس الاخلاص والثبات !... ولم أشعر بوطأة الفقر لحظة ولم أتألم !...

كان عاطف يحبني ، وكان لا يذكرني أبدا بالماضي . وكنت أعيش في صحبة أمه وأبيه ، مأخوذة بهنائي ، مفتونة بجهادي ، منكبة على العمل طوال نهاري ، أكنس البيت وأمسحه ، وأغسل الجوارب والقمصان وأرتقها ، وأطهي الطعام بنفسي ، وآكل العدس والفول ، ولا يخطر على بالي أني كنت بالأمس أتحرق وأتلهب ، وأتطلع وأترقب ، وأتمنى وأشتهي !...

وانقضى العام الأول وأنا في بهجة ، وتلاه العام الثاني وأنا في شبه حلم ، وأقبل العام الثالث وبدأ الاضطراب ، وبدأ القلق ، وبدأ العناء !... ليت الله كان قد حباني بطفل . اذن لكنت قد هزأت باضطرابي وقلقي ، واجتليت طلعة العالم بعين جديدة ، وعشت حياة مضاعفة مستمدة من حب طفلي . ولكني كنت لم أعقب بعد طفلا ، فاشتد بي القلق والاضطراب ولم أعد أدري ماذا أصابني فجأة وماذا حل بي ...

أفقت من نومي ذات صباح واذا بي أنظر حولي وأرتعش !... ماذا ؟... هذا الأثاث الشائع ، هذه الحيطان العارية ، هذه المقاعد المترنحة ، هذا الدولاب العاطل من كل زينة ، هذا الفراش المكسو بملاءات مصفرة عتيقة بالية ، أهذه هي حجرتي ؟... أهذا هو بيتي ؟... نعم هو بيتي . ولكني كنت بالأمس معتزة به ، مزهوة بامتلاكه ، أمرح فيه وكأني في بستان فسيح زاخر بأزهار غرستها بيدي . فلماذا تبدل اليوم في نظري ، ولماذا استحال الى شبه قبو مظلم ينوء عليّ ويخنق أنفاسي ؟!...

وأحسست بالرغم مني أني أتحول ، وأني أتضجر ، وأني عدت فقيرة وخاملة ومحرومة . فهلع قلبي ، وشرد لبي ، وخالس عقلي نعيم الماضي وفكرت في رشاد ... فكرت في الرياش الفاخرة ، والتحف النادرة ، والمرايا اللامعة ، والسيارة الفخمة ، والقصر العظيم !... فكرت وقارنت واستولت عليّ حسرة مقرونة بذهول ... خامرني احساس داهم بالنقص والفراغ ، أرهقني واستبد بي ...

وكما كان ينقصني الحب وأنا في صحبة رشاد ، كذلك أصبح ينقصني الترف وأنا زوجة عاطف ! .

وملكني من جديد اغراء الطمع ، فقاومته ... قاومته في عناد واصرار . ولكن المقاومة نفسها وضعت الاغراء وجها لوجه أمامي . فلكي أفر منه لذت بزوجي ، وحاولت أن أحصر فيه وحده كل مشاعري . بيد أني كنت لا أكاد أتأمله حتى اصطدم بصور الأملاق والضيق المنبعثة من عجزه المادي والماثلة في بيتنا وحياتنا . فينقبض قلبي ، ويتقلص حبي ، ويزحف الي الاغراء وئيدا غادرا متلصصا ، ويجردني من كل قدرة على المقاومة ويستأثر بي ...

وكنت قد التقيت برشاد مصادفة قبل ذلك بأيام في بيت صديقة لي ولابنة عمي . فألمع اليّ رشاد بأنه قد نسي الماضي وما برح متأهبا للزواج بي لو انفصلت عن عاطف . فزجرته ، فلم يحفل ، وأمعن في التهافت عليّ واستدراجي . فوبخته أمام الصديقة وجرحت شعوره . فارتجف ، وحدق فيّ ، وشعّت من عينيه بارقة غريبة . ولكنه حنى رأسه واحتمل الاهانة . فأيقنت أنا أنه ما يزال متعلقا بي .

هذا الشعور هو الذي أفقدني صوابي ، هو الذي شجعني ، هو الذي أخمد مقاومتي وأضرم في صدري نار التمرد والانتفاض .

وتجهمت طبعي ، وساء خلقي ، وبعد أن كنت في معاملتي لعاطف مثال الرقة والدماثة والطاعة ، ناصبته العداء ، واندفعت أكايده وأعارضه ، وأستخدم ذكائي لا في التساهل بل في التعنت ، ولا في التيسير بل في التعقيد ، ولا في الجدل بالتي هي أحسن بل في المغالطة والمكابرة ووضع الزهو والخيلاء موضع الحقائق البيضاء الناصعة .

واستغربت أنا كيف تبدد حبي ، وكيف أصبح زوجي وكأنه غريب عني . ودهش عاطف لتحولي ، ولم يصدق سمعه وبصره ، وخيل اليه أنه قد قصّر في حبي ورعايتي والحدب عليّ . فأخذ يغمرني بالعطف والحنان ، ويتجاوز عن كل سيئة أقابل بها احسانه ، ويعاملني كأني طفلة مريضة ، ولا يتبرم أبدا بي أو ينفر لحظة مني . ولكن هذه الطيبة منه كانت تغيظني ، وهذه السماحة تثير أعصابي . فكنت أسترسل عامدة في غيي ، وأجد لذة خبيثة في مناوأته وايلامه ورؤيته يتحير ويتخبط أمام عيني .

وروعه مني هذا الجحود الصارخ المقرون بقسوة منكرة ، وهاله بعد أن كان السيد الأثير الغالي أن يصبح فريسة وضحية . فراجعني ونبهني ، ثم حذرني وأنذرني . ولما لم أكترث ولم أرتدع واستحالت حياتنا اليومية الى جحيم ، يئس مني ، فثار ذات يوم ثورة عارمة بعد نزاع عنيف نشب بيننا ... وبالرغم منه ، ورغم الحسرة العميقة التي كانت تمزقه ، رمى بكلمة الطلاق بناء على رغبتي .

وعدت أبحث عن رشاد ... أذللت كبريائي ، وامتهنت كرامتي . ورجوت سهام التي كانت تكرهني ، رجوتها أن تدعوه لزيارتها ، وتتوسط بيني وبينه ...

وأقبل رشاد مشرق الطلعة ، متهلل النظرة ، ضاحك السن . فاستعر الأمل المحقق في صدري ، وطرت فرحا وتهت عجبا على ابنة عمي . ومع ذلك تواضعت ومضيت أتكلم وأستعطف وأترخص وألتمس من رشاد أن يصفح عني ... وكانت سهام تنظر اليه من خلال أهدابها وتنتظر ... وكان هو يحدق الى وجهي ، الى عيني ، الى شفتي ، الى الكلمات التي كانت تنطلق متدافعة من فمي ... وفجأة ، شعّت من عينيه تلك البارقة الغريبة التي لمحتها عندما أهنته ولم أفهم سرّها ، ثم ابتعد عني ، وتلفت كمن ينقض ، وعدا صوب التليفون ... وأمام دهشتي الحائرة المتوجسة ، أمام سهام الرابضة الساكنة المزوية الشامتة ، تناول السماعة وخاطب زوجته ... زوجته التي تحبه والتي كان قد انفصل عنها . وقال لها أنه سيذهب اليها اليوم ... وسيردها ... سيردها الى عصمته بعقد جديد ومهر جديد !... قال هذا وهو يرمقني بنظرة مستعلية ملؤها الشماتة والتشفي .

ولم يكد يلقي السماعة من يده حتى أرسلت سهام ضحكة ساخرة مدوية . فصرخت أنا ، صرخت وعزت عليّ نفسي ، ثم اندفق دمي الى عيني وغشى الظلام بصري . فاندفعت نحو الباب ، وانطلقت في الشارع ، أنتفض وأختلج وأبكي ...

• • •

وهكذا أعماني شيطان التحول والطمع ، وختم على عقلي وقلبي ، فتهاوى قصر أحلامي ، وفقدت في لحظة كل شيء ! ■

شاعرات من البادية



تأليف : الأستاذ عبد الله بن محمد بن رداس
عرض وتعليق : الأستاذ عبد العزيز الرفاعي

تمهيد

أخذ الوسط الأدبي في المملكة العربية السعودية يهتم في الآونة الأخيرة بالأدب النسوي ، بعد أن احتلت الأقلام النسوية أماكن ملحوظة من الصحف والمجلات المحلية ، كما ظهر في عالم الكتب قصص ودواوين شعرية ، تحمل أسماء الرائدات الجديدات لأدب المرأة ..

ولم يكن هذا بدعا ، بعد أن انتشر تعليم الفتاة في شرق المملكة وغربها ، وشمالها وجنوبها وبعد أن أخذت تنافس الفتى بثبات ، لتشق طريقها الى مختلف درجات التعليم ، حتى وصلت أعلى سلمه .

وقد أصبح أدب المرأة محل نقاش طال في الصحف المحلية ، حيث اختلفت الآراء فيه ، كما هي سنة الحياة في كل جديد .. بيد أن أدب المرأة ، لا يعتبر جديدا .. فقد كان للمرأة العربية أدب منذ العهد الجاهلي ، وظل لها أدب على مختلف العصور .. ولكن الجديد هنا هو أدبها في البيئة المحلية ، التي لم تكن تعرف الا أدب الرجل ، بل حيث كان أدب الرجل نفسه أدبا ناشئا يحاول أن يثبت مكانته في دنيا الأدب العربي الحديث .

وطبيعي أن أتحدث هنا ، عن القاعدة ، لا عن شواذها ، فقد يضم تاريخنا نوادر من أدب المرأة ، لا يزال مجهولا لدي أو لدى أكثر المتابعين لتاريخ الأدب في هذه البلاد .

ولقد كان من الملائم جدا أن يصدر هذا الكتاب في وقت يحتدم فيه الجدل حول أدب المرأة ، لا ليقول كلمة فاصلة في النقاش ، فلم يكن هذا موضوع بحثه ، وانما ليقول لنا ، لا تنسوا أن تذكروا أن للمرأة أيضا أدبا شعبيا خذوه في حسبانكم مهما يكن الرأي في أدب المرأة من حيث الجودة والعبقرية والتحليق ..

تدوين أدب المرأة

كان أدب المرأة العربية ، منذ القدم ، ضئيل الحظ ، فلم ينل عناية كبيرة من التدوين ، والجمع ، والتأليف والتعليق والدراسة والبحث ..

ولست هنا بصدد سرد العوامل التي أدت الى هذه النتيجة الملحوظة في تاريخ الأدب العربي الطويل ، فان بعض هذه العوامل أشهر من أن يذكر وأكاد أن أقول أن أدب المرأة لا يزال حتى الآن مطمورا ، فقلما عني به الدارسون والباحثون . والكتب التي وضعت عنه لا تزال قليلة بل ضئيلة . ومن العجيب أيضا أن النابغات من أديبات النساء ومفكراتهن لم يعرن الأدب النسوي حقه من البحث والدرس والتأليف ..

واذا كانت الصحافة ، وهي بنت هذا العصر فحسب ، قد خدمت أدب المرأة في العصر الحديث ، فأبرزته ، وأشادت به ، والمطبعة قد ساهمت باخراج عدد من الدواوين ، والقصص ، والدراسات النسوية ، فان مثل هذه الفرص لم تكن متاحة للأدب النسوي القديم ، الذي تضافرت على اخفاء معظمه عوامل شتى ، كما أسلفت .

ومهما يكن الأمر ، فقد كان حظ الشعر في الأدب النسوي أوفر من حظ النثر ، في معظم عصور الأدب ، كما هو الشأن بالنسبة لأدب الرجل ، في العصور القديمة .

واذا أردنا أن نبحث في دواوين الشعر للعهود التي تبعت العصر الحديث ، فقد لا نجد ديوانا قائما بذاته لامرأة ، فيما عدا ديوان الخنساء ، التي نافست بشعرها فحول الشعراء ، واستطاعت بجهارة شخصيتها الشاعرة أن تستلفت نظر الرواة ، وترغمهم على تدوين شعرها وروايته .

أما فيما عدا هذا الديوان ، فان أخبار شاعرات العرب القديمات ، انما تناهت الينا عن طريق كتب الأدب المعروفة ، وموسوعاته ..

ولعل أول من اهتم بتدوين أدب المرأة وحده ، فيما وصل الينا ، هو أحمد بن أبي طاهر بن أبي الفضل (٢٠٤ — ٢٨٠هـ) الذي ألف كتابه « بلاغات النساء في الجاهلية وصدر الاسلام » .

ووصل الينا أيضا كتاب « أخبار النساء » الذي ينسب لابن القيم الجوزية المتوفى (٧٥١هـ) ، ويرجح انه لابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ ، وهو كتاب معروف متداول ، بيد انه لا يتجه اتجاها خاصا لتدوين الشعر أو النثر الخاص بالمرأة ، ولكنه يعني بأخبار النساء وما يتصل بهن ..

أما في العصر الحديث ، فقد بدأت طلائع الاهتمام بأدب المرأة منذ أن وضع « لويس شيخو » كتابه عن « مراثي شواعر العرب » ثم اهتم غيره بجمع شعرهن في كتابه « شاعرات العرب في الجاهلية والاسلام » وقد ضم ما وقف عليه من شعرهن فيما عدا الخنساء ، اذ لها ديوان معروف .

وقد أخرج كتابه هذا في بيروت سنة ١٣٥٣هـ — ١٩٣٤م ولعله كما قال ، أول مجموعة تضم الشعر النسوي .

وقد أحسن الأستاذ « عمر رضا كحالة » حينما وضع معجمه القيم « أعلام النساء » ، فأسدى الى أدب المرأة يدا كريمة ، فدل على مشاهيرهن ، ومصادر أدبهن .

ثم تتالت الجهود ، وان لم تصل بعد الى المستوى الذي نريده لهذا الأدب .

وهذا الكتاب « شاعرات من البادية » يعتبر مساهمة جيدة في هذا المضمار ، وان كان قد اتجه الى الاهتمام بالشعر البدوي العامي ، لا الى الشعر الفصيح .

الأدب الشعبي

ويثير الاهتمام بهذا الشعر الشعبي النسوي قضية هامة من قضايا الأدب ، هي مدى جدارة هذا الأدب بالاهتمام والتدوين ، أو بمعنى آخر هل يصح أن نهتم به وندونه ، ونحلل مواطن العبقرية فيه ؟ ، أو نهمله ونطمره ، ونتناساه لئلا يكون في الاهتمام به تشجيع على نشر العامية وأدبها ، وانصراف عن الفصحى !

ولقد أولى الأستاذ الباحث حمد الجاسر ، هذه النقطة اهتماما بالغا في تقديمه للكتاب ، ودافع عن الشعر الشعبي فأحسن الدفاع .

ولست أشك لحظة في وجاهة الدفاع القيم الذي أورده الأستاذ الجاسر ، وليس لمنصف أن يشك في ذلك ، على أن لا يتجاوز الأمر حد التدوين والبحث والتحليل ، لا الحض على العامية أو الاعتزاز بها ، أو تجنيد أدبها ..

ان الأدب الشعبي ظاهرة ، كغيرها من الظواهر الفنية الأخرى التي تواكب الحياة البشرية والتي لا يجدر بنا أن نغفلها أو نغض من شأنها .

واذا كان مؤلف هذا الكتاب ، قد أحسن صنعا حينما اهتم بالأدب النسوي ، من حيث هو ، باعتباره لم يأخذ حقه الكامل من الاهتمام ، فقد أحسن صنعا مرة أخرى ، حينما صرف هذا الاهتمام الى الأدب الشعبي النسوي ، الذي نحن أحوج ما نكون الى معرفته والوقوف عليه .

عقبات .. ونظرات

ولست أشك ان المؤلف قد صادف كثيرا من العنت والحرج ، وهو يجمع مادة كتابه ، لا لأن جمع مادة الأدب الشعبي في ذاته أمر صعب ، لأنه قلما يعتمد على التدوين ، ولأنه يتطلب تلقفا من الأفواه ، وتوثقا من أخبار الرواة .. لا لهذا فحسب ، وانما لأن البحث عن أدب المرأة في ذاته ، مهمة صعبة شاقة عسرة ، تتطلب الكثير من الصبر والجهد والدأب ..

ولم يفت المؤلف أن يشير الى هذا في مقدمته ، والى أنه صرف أكثر من عشر سنوات ، وهو يجد في جمع مادة كتابه . وليس ذلك بغريب ، فان أدب المرأة نابع غالبا من عواطفها ، واذا كان المجتمع قد أساغ أن يعبر الرجل عن عواطفه بشيء من الحرية ، فانه لم يسغ للمرأة أن تعبر عن عواطفها ، مع ان المرأة أغزر عاطفة وأعمق شعورا ، وأرهف احساسا .

ومن هنا لا تعجب أن تخفي الشاعرة شعرها العاطفي ، أو أن تنسبه الى غيرها ، أو أن تجد نسبة الشعر غير واضحة .. اما لامرأة مجهولة تماما ، أو لامرأة تحمل اسما غامضا ، فلا تدري من هي ؟ أو لا تعرف قبيلتها ، أو لا تعرف عصرها على وجه التحديد .

ولقد كدت أن أجعل مثل هذا الغموض مأخذا على الكتاب ، فان ظاهرة الغموض هذه لتشيع في صفحاته كثيرا ، ولكني عدت فالتمست العذر للمؤلف ، بل أقررته على العذر الذي ألتمسه لنفسه . بيد انني مع ذلك وقفت طويلا عند الفقرة التي تقول في مقدمته ان « بنت البادية تتمتع بحرية واسعة » ، فانني أشك أن تكون هذه الحرية واسعة حقا ، والا لما لف الكثير من انتاجها الشعري هذا الغموض الذي نرى . والمؤلف نفسه يشكو قبل قليل في فقرة سابقة من مقدمته انه « كثيرا ما تنظم المرأة الشعر فتخفيه ، فينمى ، وان عرف فقد ينسب الى غير قائله ، وخاصة بعض الأشعار التي تتصل بالعاطفة . وما أكثر هذا النوع من الشعر » .

صحيح ان للحياء النسوي الذاتي ، النابع من داخل النفس تأثيره في حجب بعض هذا الشعر أو في عزوه الى غير قائلته ، ولكن هذا الحياء ذاته يشكل حدا من الحدود المتعددة التي تحد من حرية ابنة البادية ، فلا تجعلها واسعة ، كيف اذا أضفنا اليها ان كثيرا من مناطق البادية ذات حساسية مرهفة لكل ما يتصل بالنساء ، حتى لو كان من قبيل الكلام أو الشعر ، ولا يزال في البادية ، كما علمت ، من يحول بين الشاعر وابنة عمه أو خطيبته متى شبب بها ، وسار تشبيبه في المجالس والندوات .. وكل هذه الحقائق أشار اليها المؤلف ذاته في مقدمته ، فهو بالبادية خبير .

وعندي ان هذا الشعر قد دخل ذمة التاريخ بعد نشره مضموما في كتاب .. ولذلك لم أعرف السر بعد ، في اغفال التعريف بالشاعرات اللواتي عرفت أسماؤهن وقبائلهن ، تعريفا كاملا ، فمثلا هذه الشاعرة اسمها « حصة » وهي من ولد سليمان من عنزة .. هل يكفي هذا التعريف بها ؟ ترى كم من « حصة » في قبيلتها ، وفي ولد سليمان .. ؟ وددت لو بذل المؤلف الفاضل ، جهدا آخر اضافيا ، فوق ما بذل من جهد مشكور ، ليكون التعريف بالشاعرة كاملا . ان الأهمية التاريخية هنا لا تخفى .. اللهم الا أن يكون مثل هذا الابهام مقصورا لذاته ، حتى بعد أن عرف الاسم ، وعرفت القبيلة ..

ولقد أجادت هذه الشاعرة تغطية عواطفها أو البراءة من حمل مسؤولية ما قالت ، كما ان قطعتها الشعرية جاءت واضحة ، سائغة الألفاظ لا تتطلب جهدا فائقا في الفهم :

يا حلو رص الروح بالروح للروح
متوالفين كلهم ، لا بلينا
مالي بتفطين المحبين مصلوح
بالذكر ، والا عن كذا ما درينا
قلته ، على نوع التمائيل ومزوح
مالي عشير ، ولا لهذا مشينا

واني لأنصح الذين هم مثلي ممن لم تكون عندهم الخبرة بعد بهذا الشعر وألفاظه ، أن يعيدوا قراءته وتأمله فسيجدوه واضحا سائغا جميلا ..

والمثل الذي سقته ، من الاكتفاء بذكر الاسم والقبيلة ، أو الجهة التي تقطنها الشاعرة ، يتكرر كثيرا . ولعل المؤلف ، حينما يعيد النظر في كتابه ، ليطبعه مرة أخرى ، يهتم بهذه الناحية ، ذلك انني لا أشك لحظة ان شاعرة ، كغزيل مثلا ، تصرح باسم صاحبها ، وعشيرته ، وعشيرتها ، وتثني على شرفه وناموسه وكرمه .. لا أشك ان مثل هذه الشاعرة قد أصبحت مشهورة في محيط البادية .. فما هو الحرج بعد هذا في التعريف بها تعريفا كاملا ، خدمة للتاريخ الأدبي ، كما حفظ لنا التاريخ اسم تماضر بنت عمرو (الخنساء) وأم الضحاك المحاربية.. مثلا .

قالت « غزيل » :

واتلّ قلبي ! على (بلعوس)
تلة ركاب المقفّين
أقفى بقلبي يدوسه دوس
يا ليت ماهليه (ديحين)

أشربه لو ينشري بفلوس
لو يزعلون (القريبين)
يفدا عشيري عرب (مدهوس)
وعويشه والجداعين
غليٍّ يكسب الناموس
ويكثر الهيل بالصين

وهذه القطعة أيضا جميلة ، ولكنها تختلف عن سابقتها بصراحتها ، وبمواجهتها للحقائق .. فهي تبدأ بالهفة الصارخة . « واحرّ قلباه على بلعوس » ، كما تشتد اللهفة ساعة الوداع بين المتوادعين المتحابين ! لقد ذهب ومعه قلبها الذي أمسى يدوسه دوسا .. ليته لم يكن من هذه القبيلة التي تشد رحالها اليوم .. بودها لو تفتديه بالمال ، لو أمكن ، أو بكل هذه العشائر التي ذكرتها . انه شاب ، لطيف ، شريف كريم ، ولا أدل على كرمه من كثرة قهوته ، وكثرة ما يضع فيها من الهيل ..

وجدير بالذكر والتنويه هنا ، ان المؤلف قد أحسن صنعا ، حينما عني بشرح الكلمات والمعاني ، في ختام كل قطعة ، فان الكثير من هذا الشعر في حاجة قصوى الى مثل هذا الشرح ، ولولاه لما استطعت أن أقرأ هذه الأشعار ، ولما استطعت أن أستسيغها ، ولا أدرك مراميها . وعلى سبيل المثال ، اذكر اني وقفت معجبا أمام موسيقى وتهدج قطعة فنية جميلة للشاعرة « وضحاء الشعان » مطلعها :

يا فايز الفرّاج ، قلب العنا ماج
وتبينت بأقصى الضماير فجوعه

ولكنني لم أدرك معنى هذا الكلام الموسيقي الجميل لولا استعانتي بالشرح المرتب الذي أورده المؤلف للقطعة ، وقد تبين لي انها ضمت الى جمال الفاظها جمال معانيها التي نبعت من قلب صادق العاطفة ، عميقها :

والله .. ما أنسى صاحبي يا ابن فراج
لو الشجر كله تصرّم جذوعه

اذن فليهدأ ابن فراج ، فليس هناك سلوى أو نسيان .. !

لا أنكر انني كلما مضيت في هذا الكتاب أشعر كأنني أجتاز عالما مجهولا ، وانني أحس بلذة اكتشافه .. ان هذه الأسماء الكثيرة ، انما هي معروفة جدا لعالم البادية يتناقل الرواة أخبارها ويرددونها في أسمارهم وندواتهم ، ولكنها عندي مجهولة جدا ، فأي صنيع جيد هذا الذي صنعه المؤلف ، حينما قدم هذا العالم المجهول ، عند أمثالي ، ليعرفنا به ، وليدخل التاريخ الأولي ، كانتاج منه ما هو جدير بالخلود ..

ملاحظات

يبدو انني وقفت طويلا عند باب الغزل ، وهو باب ترتاح القلوب الى الوقوف عنده .. وقد بدأ به المؤلف ، ثم ثنى بالوصف ، وأتى بالمدح ، وعرج على الهجاء ، وجاء بأغراض أخرى متعددة ، ثم انتهى بالرثاء ، والموت غاية كل حي .. هذه هي أبواب الكتاب .

وقد لاحظت ان هناك تداخلا بين بعض هذه الأبواب ، فقد تجد غزلا في باب الوصف ، وكذلك في المديح ، أو قد تجد الحنين هنا وهناك .. ولعل جامع هذه الأشعار ، قد تاه في عواطف المرأة المتداخلة المتشابكة ، التي يلفها الغموض . ولا غرو ان طغى الغزل أو الرثاء ، على أبواب الكتاب ، فانهما لاصقان بطبيعة المرأة .

بيد انني أرجو أن تتاح الفرصة ، واسعة ، للمؤلف الفاضل ، في طبعة قادمة ، ليعيد النظر طويلا فيرتب الكتاب ترتيبا أكثر دقة ، وحبذا لو جعله مجاميع بأسماء الشاعرات ، ليقدم كل شاعرة ، ويترجم لها ما وسعه سبيل ، ثم يورد النماذج التي عثر عليها من شعرها ، فذلك عندي أفضل من تكرار اسم الشاعرة ، في أكثر من موضع وتكرار تقديمها في أكثر من موضع ، ولعل الفرص تسعفه ليتعرف الى المزيد من أخبار الشاعرات وقبائلهن وشيء عن حياة كل منهن ..

تقييم ونماذج

هناك ظاهرة كبرى متميزة بين شاعرات البادية هي التشابه . ومن الطبيعي أن يكون هناك تشابه في بعض الاستعمالات الخاصة كالفاظ الاعجاب ، أو النواح ، ولكن هناك أيضا التشابه في المعاني ..

من تشابه الألفاظ أذكر مثلا : يا لجتي لجة كذا .. ويا تلّي تلة كذا .. يا تل قلبي .. الخ .

ومن التشابه في المعاني ، أن تقول احداهن ان زوجها أو حبيبها تفداه القبيلة ، والأهل ، وفلان وفلان من كبار الرجال أو زعماء القبيلة .. فان هذا النوع من « الفداء » شائع كثيرا بين الشاعرات .

أما اذا تطلبنا شعرا عبقريا ، أو تطلبنا التفاتات ذهنية ، أو ابتكارا في المعاني ، فيبدو اننا سنشتط .. ذلك ان شعر البادية شعر عفوي ، واذا كنا نجد بعض هذه البوادر في شعراء البادية أو شعراء الشعر الشعبي من الرجال ، فاننا لا نجده لدى الشاعرات ، لأن الفرص التي تتاح للرجال في الأسفار والرحلات ، والاختلاط بشتى البيئات ، وفرص التعلم والاطلاع ، كل هذا مما لا يتيسر للشاعرات البدويات .. ولكنهن يعوضننا عن ذلك بصدق التعبير ، والعاطفة على اننا قد نجد عندهن أيضا دلائل التجربة أو الميل الى ارسال الحكمة ، أو صياغة حكمة معروفة أو مثل معروف صياغة جديدة ، كما تقول الشاعرة « نورة الهوشان » .

اللي يبينا عيّت النفس تبغيه
واللي نبي ، عجّز البخت لا يجيبه

الا يذكرك هذا بقول الشاعر :

جننا بليلى ، وهي جنت بغيرنا
وأخرى بنا مجنونة لا نريدها ..

وهذه « الدقيس الصليبية » تقول :

من لا استشارك لا تبدّي له الشور
ومن لا يودّك نور عينك فراقه

ومن الصور الجميلة ، هذه الصورة التي ترسمها الشاعرة « صيتة التميمية » التي سكنت ضواحي الرس ، بينما راح حبيبها ، يتبع صيد المهافي الصواهيد « في الصحاري الحارة المصهدة » لقد تمنت أن تفارق ذلك الظل الظليل الذي تعيش تحت وارفه ، لتتابع خطوات حبيبها « سرور » في الصحراء ، وتحمل عنه ما يصيد من « المها » ، فانها لا تريد عنه بديلا ، وفي سبيله تصرح بما تصرح به من هوى ، بحيث يعد هذا التصريح خروجا عما ألفته المرأة من التزام للحياء ، والبعد عن كلام الناس ، « المناقيد » ، ولكن لا عليها ، فان على اللوام أن يسفوا التراب ، أو يضربوا رؤوسهم في أعالي الصخور الصماء « نايف الحيد » :

أنا بوادي الرس داري ظليلة
وصويحبي يتلى المها بالصواهيد
ليته اذا صاد المها عنه أشيله
أشيل أنا عن صاحبي جملة الصيد
شفّي (سرور) ولا اتمنى بديله
عليه ضيعت الحيا ، والمناقيد
من لامني يلهم دقاق النثيله
والا يطق بهامته نايف الحيد

وهذه صورة أخرى لشاعرة مجهولة ، قتل أهلها ، فلم يبق الا غلامهم ، الذي أصبح معيلها أو المسئول عنها ، مع انه لا يشاركها احساسها بفقد رجالها ، ولا يشاطرها السهر والأسى ، ومن عجب انها كانت من قبل تأمره بما تأمره به فيطيع ، واذا حل الضيوف تكلفه باحضار الذبيحة وتهيئتها ، أما اليوم فقد أصبح سيدا :

هنيكم ياهل القلوب المريحة
ما لوم عيني لو جرى دمعها دم
أبكي على أهل الدلال المليحة
اخواني اللي اذا بغوا لازم تم
يا العبد هاذي من حكايا الفضيحة
حل السهر لي وانت يا العبد قم نم
من أول نامر تجي بالذبيحة
واليوم يا عصر الندم صرت لي عم

وبعد ، فان هذا الكتاب قد طبع طبعا متقنا ، على ورق صقيل جيد ، وقد عني المؤلف بشكله وضبط كلماته . وضبط الكلمات مهم جدا في الشعر الشعبي ، وقد ذيل بفهارس كثيرة للموضوعات ، وللشعر مرتبا على قوافيه ، ولأسماء الشاعرات ، والقبائل والمواضع .. الخ . فقد بذل مؤلفه جهدا قيما لاخراج كتابه اخراجا جيدا جميلا ، ولا شك ان دار اليمامة وصاحبها الأستاذ الشيخ حمد الجاسر قد ساهما في العناية بهذا الكتاب . ولا شك ان تاريخ الأدب الحديث في الجزيرة العربية سيعتبر هذا الكتاب من مراجعه الهامة ■

اخبار الكتب

* اتجهت عناية الباحثين في هذه الأيام الى اعداد كتب الفهارس التي تعين طلاب الدرس على قضاء أوطارهم من المراجع اللازمة لدراساتهم . ومن هذه الفهارس ما هو عام يتناول جميع الكتب أو الدوريات التي نشرت في فترة معينة ، مثل كتاب « الكتب العربية التي نشرت في الجمهورية العربية المتحدة بين عامي ١٩٢٦ و ١٩٤٠ » وقد أعدته الأديبة عائدة ابراهيم نصر ، و « فهرس لـ ٣٢٠٠ مجلة وجريدة عربية ١٨٠٠ — ١٩٦٥ » وقد أعدته المكتبة الوطنية في باريس و « فهرس مجلة الأبحاث ١٩٥٨ — ١٩٦٧ » وقد وضعته الأديبة نوال مكداشي .. وهناك فهارس متخصصة تتناول المخطوطات بعامة أو التي تتناول بابا معينا من أبواب العلم ، مثل كتاب « مشاركة العراق في نشر التراث العربي » للعلامة الأستاذ كوركيس عواد والجزء الأول من « فهرس المخطوطات العربية بدار الكتب الشعبية في صوفية — قسم القرآن وعلومه والحديث وعلومه » وقد وضعه الأستاذ عدنان الدرويش و « المخطوطات اللغوية في مكتبة المتحف العراقي » للأستاذ أسامة ناصر النقشبندي و « فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية — قسم الطب والصيدلة » وقد وضعه الأستاذ سامي خلف حمارنة وراجعته السيدة أسماء الحمصي و « فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية — قسم علوم الهيئة وملحقاته » وقد وضعه الأستاذ ابراهيم خوري و « فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية — المنتخب من مخطوطات الحديث » وقد وضعه الأستاذ محمد ناصر الدين الألباني .

وفي الوقت عينه عكف المستشرق العلامة الدكتور بايارد دودج الرئيس الأسبق لجامعة بيروت الأميركية على تحقيق واخراج طبعة جديدة من « الفهرست » المشهور لابن النديم استنادا الى مخطوطات فارسية تبين أنها أضبط وأوفى من المخطوطات التي استند اليها المستشرق فلوجل في نشر طبعته وهي التي يعتمدها أغلب الباحثين . والأرجح أن يتم طبع تحقيق الدكتور دودج في طهران مع فهارس موسعة للكتاب .

* من الظواهر الأدبية التي تسترعي الانتباه ، لجوء الأدباء والكتاب الى اصدار مجموعات كاملة من كتبهم في مجلدات كبيرة بدلا من تركها متفرقة تتعرض للضياع . فبعدما نشرت في هذا النسق المجموع مؤلفات المرحوم الدكتور أحمد أمين « فجر الاسلام وظهر الاسلام وضحى الاسلام » ظهرت « عبقريات » العقاد و « اسلامياته » في مجلدات مجتمعة ، ثم شرع الدكتور طه حسين والأستاذ ميخائيل نعيمة في تجميع مؤلفاتهم ، ونشر الأستاذ نزار قباني مجموعة كاملة من شعره في مجلد واحد .

* تتأهب دار « عالم الكتب » في القاهرة لنشر المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ يحيي حقي ، فتخصص مجلدا للروائيات ومجلدا للدراسات النقدية ومجلدا للنظرات الاجتماعية ، كما تنشر نفس الدار مجموعة كاملة للمؤلفات الروائية للدكتور يوسف ادريس . وتصدر أربعة كتب في مجلد واحد هو « أقاصيص الدكتور مصطفى محمود » .

* من المخطوطات التي حققت ونشرت أخيرا « النصرة في أخبار البصرة » للقاضي أحمد نور الدين الأنصاري وهو تقرير كان قدمه القاضي الأنصاري الى منيب باشا والي البصرة سنة ١٢٧٧هـ وقد حققه وعلق عليه الدكتور يوسف عزالدين و « ديوان أبي محجن الثقفي » صنعة أبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري وقد حققه الدكتور صلاح الدين المنجد و « كتاب التاج في أخلاق الملوك » للجاحظ وقد حققه الأستاذ فوزي عطوي و « ديوان طلائع بن رزيك الملك الصالح » وقد جمعه وحققه وبوبه الأستاذ محمد هادي الأميني و « شعر ثابت قطنة العتكي » وقد جمعه وحققه الأستاذ ماجد أحمد السامرائي و « خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب » للامام النسائي وقد حققه الأستاذ محمد هادي الأميني .

* هذا ويصدر قريبا عن معهد المخطوطات في الجامعة العربية ديوان « المتلمس الضبعي » من تحقيق الشاعر الأستاذ حسن كامل الصيرفي الذي يعكف الآن على اتمام الفهارس الشاملة لديوان البحتري الذي حققه ، فتكتمل بذلك أجزاؤه الخمسة .

* أصدر الأديب العراقي الأستاذ وحيد الدين بهاء الدين كتابا في النقد الأدبي عنوانه « نظرات في الكتب » تناول فيه بالعرض والتعليق أكثر من ٢٥ كتابا منتقاة من الديار العربية المختلفة والمهاجر ، كما صدر للدكتور محمد السعدي فرهود كتاب « قضايا النقد الأدبي الحديث » .

* من كتب التراجم والسير صدرت طائفة جديدة منها « الامام ابن تيمية » للاستاذ عبد السلام هاشم حافظ ، و « حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب » للأستاذ خلف الشيخ خزعل و « البحتري في سامراء حتى نهاية عصر المتوكل » للأستاذ يونس أحمد السامرائي و « محمد فريد وجدي : حياته وآثاره » للدكتور طه الحاجري . كما يصدر قريبا للأديب الأردني الأستاذ يعقوب العودات كتاب عنوانه « من رواد أدبنا المعاصر » يتناول فيه سير طائفة من الكتاب والشعراء وآثارهم ، ومن أبرزهم الأساتذة محمد عبد الغني حسن وجورج صيدح وحسن كامل الصيرفي وعادل الغضبان وغيرهم .

هذا ويترجم الأستاذ رضوان ابراهيم كتابا وضعه بعض المستشرقين عن فيلسوف الفريكة الأديب المؤرخ الرحالة أمين الريحاني .

* صدرت في الشعر طائفة من الدواوين الجديدة منها : « مأساة الحياة وأغنية للانسان » للدكتورة نازك الملائكة و « الكلمة لها عينان » للشاعر الليبي الأستاذ علي صدقي عبد القادر و « أجراس اليوم » للأستاذ أديب صعب . وتصدر قريبا للشاعر المهجري الأستاذ فيليب لطف الله حلقة ثانية من ديوانه « نسمات الجبل » . هذا وتنشر مجلة « المراحل » العربية في سان باولو (البرازيل) مجموعة شعرية عنوانها « مقطفة النجوم ومعارضاتها » وهي تضم أكثر من سبعين قصيدة نظمها شعراء من الوطن والمهجر في معارضة أبيات للشاعر نقولا المعلوف قالها في المرحومة روز المعلوف قرينة الشاعر شفيق المعلوف .

* صدر مؤخرا كتاب ضخم عنوانه « لماذا أسلمنا » ، يضم فصولا لبعض الكتاب الغربيين الذين اعتنقوا الدين الاسلامي ، وقد ترجمه الى العربية الأستاذ مصطفى جبر وراجعه الأستاذ السيد أبو يوسف . كذلك ظهر كتاب « شخصية المسلم كما يصورها القرآن » للأستاذ مصطفى عبد الواحد . ومن الكتب الاسلامية التي ظهرت « الجنين والأحكام المتعلقة به في الفقه الاسلامي » وهو دراسة مقارنة للدكتور محمد سلام مدكور .

* أخرج الأستاذ أحمد محمد السيد عنبر كتابا من ثلاثة أجزاء سماه « ثلاثية الزمن » واختار لكل جزء عنوانا مستقلا هي « سجل الزمن » و « دليل الزمن » و « مفاتيح الزمن » . ويبحث الكتاب في المواقيت والتواريخ والأزمنة وما الى ذلك .

* صدر العدد الأول من دورية « تعريف بوثائق تربوية حول التعليم » وذلك باشراف ادارة الوثائق التربوية في وزارة المعارف السعودية ■

* أصدرت كلية الآداب بجامعة الرياض المجلد الأول من « مجلة كلية الآداب » .. التي تصدر مرة كل عام باشراف نخبة من أساتذة الجامعة، وتعنى بالشؤون الأدبية والتاريخية والفكرية عامة ، وتقع في ٤٦٥ صفحة .

* أصدرت كلية اللغة العربية بالرياض العدد الأول من « مجلة كلية اللغة العربية » .. وهي مجلة تعنى بشؤون الدين واللغة والأدب ، وتقع في ١٧٦ صفحة .

كتب مهداة

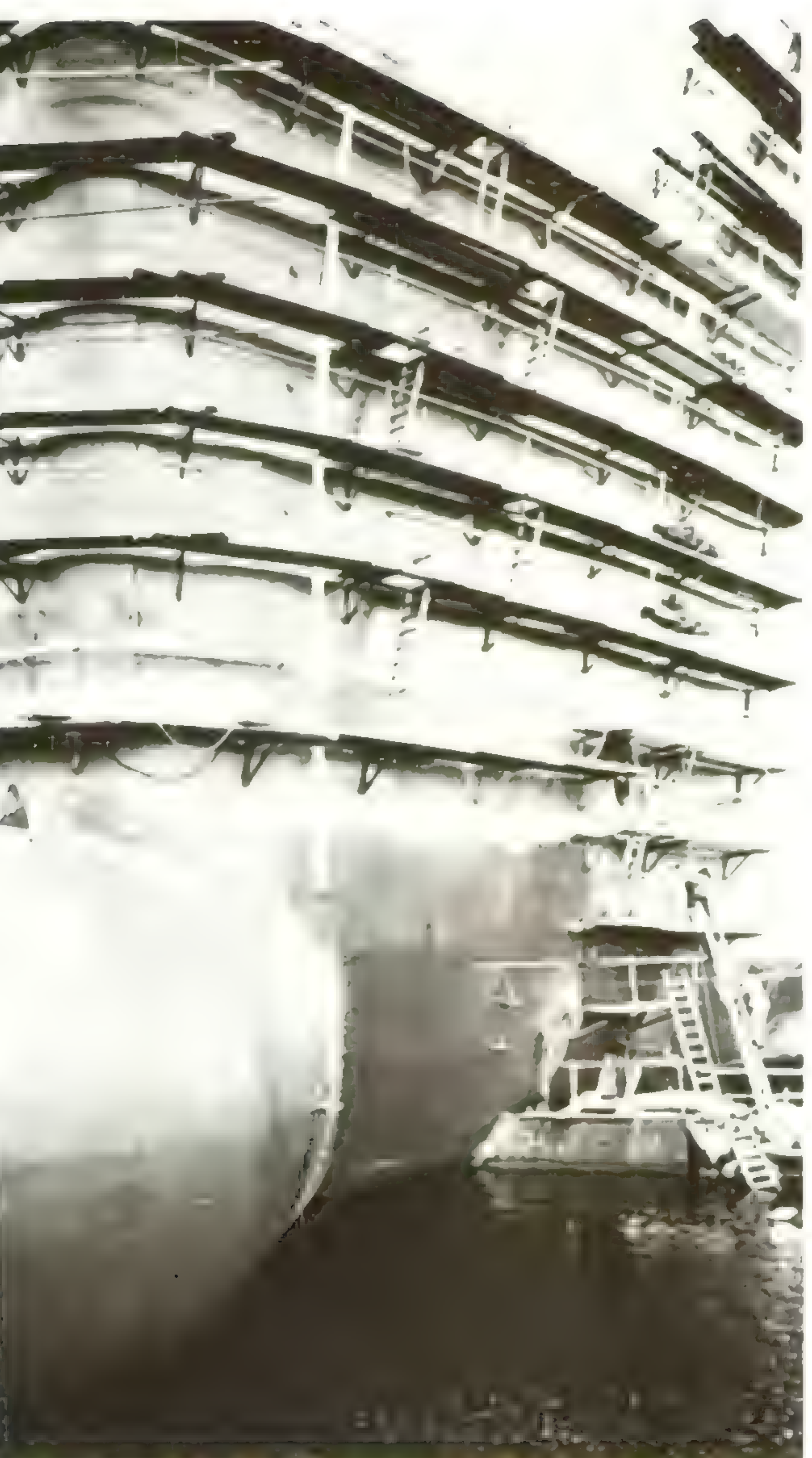
حظيت مكتبة القافلة مؤخراً بالمؤلفات التالية

* الجزء الأول من المجلد الثاني عشر من مجلة « معهد المخطوطات العربية » ، ويحمل عنوان « كتاب الكافي في العروض والقوافي » للخطيب التبريزي وتحقيق الحساني حسن عبد الله .

* الجزء الثاني من المجلد الثاني عشر من مجلة « معهد المخطوطات العربية » الصادرة عن معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، والتي تعنى بشؤون المخطوطات والوثائق العربية وتاريخها في العالم .

* « أساطير ملهمة » للدكتور زكي المحاسني ■

ناقلات الزيت العملاقة "الماموث"*



ناقلة زيت في طور البناء ، وقد بدت مقدمتها شامخة كعمارة مكونة من ستة طوابق ، وستكون من الناقلات العملاقة التي ستؤم ميناء رأس تنورة البحري في المستقبل لحمل الزيت السعودي الى الأسواق العالمية
تكساكو

* MAMMOTH

انطلقت

صناعة الزيت وأخذت تنمو وتتطور بسرعة فائقة ، وفي فترة وجيزة نسبيا أصبحت كما نعرفها اليوم تمتد عبر القارات والمحيطات ، وتستثمر فيها الأموال الباهظة ، ويستخدم فيها مئات الألوف من الأيدي العاملة. وقد اتسعت رقعة هذه الصناعة حتى شملت معظم أجزاء العالم . وقد جاء هذا التوسع نتيجة طبيعية للطلب المتزايد على الزيت ومنتجاته ، وتعدد وسائل استعماله وطرق الاستفادة منه. ومع تطور صناعة الزيت برزت صناعة أخرى تسير معها جنبا الى جنب وتتسع بشكل ملحوظ . ألا وهي صناعة ناقلات الزيت ، التي أخذت تكرس جهودها منذ مطلع هذا القرن لمواكبة التطور الحثيث في انتاج الزيت والاطراد المتزايد في استهلاكه ، وذلك عن طريق تطوير حجم الناقلات تلبية لحاجة الأسواق اليه بأقصى سرعة ممكنة . وهذا ما يدعو الى القول بأن نجاح صناعة الزيت وتطورها يرتبطان ارتباطا وثيقا بتطور ناقلات الزيت .

وتشير الدراسات الأخيرة الى أن نسبة الزيت الذي ينقل عن طريق البحر تشكل أكثر من ٦٠ في المائة من مجمل الانتاج العالمي . ويمكن القول أن التزايد الهائل في استهلاك العالم من الزيت يرتبط ارتباطا وثيقا بامكانات شركات الزيت العالمية لنقل هذه الكميات بالناقلات وبتكاليف اقتصادية .

لمحة تاريخية

كانت سفن الشحن العادية ابان صناعة الزيت البدائية ، أي خلال الستينات من القرن الفائت ، تستخدم صفائح أو براميل خشبية لنقل الزيت ، لم تلبث أن استبدلت بخزانات حديدية أكبر حجما تركب داخل هيكل السفينة . ومع تزايد الطلب على الزيت الخام ، ولمس الفوائد الاقتصادية الناجمة عن نقله بالبحر ، نشأت فكرة استخدام هيكل السفينة ذاته كوعاء لشحن الزيت . ويعتقد أن أول ناقلة للزيت أنشئت على هذه الأسس هي الباخرة « جلوكوف » التي بنيت في أواخر عام ١٨٨٥ بحمولة اجمالية مقدارها ٢٣٠٧ أطنان . ونتيجة لاكتشاف الزيت في بقاع مختلفة من العالم في أوائل هذا القرن ، طرأ تغير جذري على طرق تسويق الزيت ، أدى الى اعادة النظر في تصميم الناقلات وزيادة حجومها . وقد بلغ معدل الحمولة الساكنة* للناقلة الواحدة آنذاك ٥٠٠٠ طن ، وبنشوب الحرب العالمية الأولى



الناقلات العملاقة تؤم الجزيرة الاصطناعية في رأس تنورة لشحنها بالزيت الخام ومنتجات البترول .. وتبدو هنا أربع منها أثناء تحميلها بالزيت السعودي .

تصوير : « برنت مودي »



احدى الناقلات العملاقة لدى رسوها في فرضة رأس تنورة البحرية استعدادا لتحميلها بالزيت السعودي .. وتبدو هنا أذرعة « شيكسان » الخاصة بالتحميل قبيل وصلها بصنابير التعبئة على ظهر الناقلة .

تصوير : « عبد اللطيف يوسف »

* الحمولة الساكنة بالأطنان تمثل وزن الحمولة ، والمخازن ومستودعات الوقود وصهاريج الماء التي تستطيع الدفة حمله .. ويساوي الطن منها ٢٢٤٠ رطلا انجليزيا .



١

ارتفع هذا المعدل الى ما يزيد على ٦٠٠٠ طن للناقلة الواحدة . وتجدر الاشارة هنا الى أن احدى الشركات الهولندية تمكنت في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى من بناء أول سفينة عابرة للمحيطات تدار بالمحرك . كانت مع صغر حجمها . فاتحة عهد جديد في النقل البحري ورائدة لعدد كبير من الناقلات التي جرى بناؤها فيما بعد .

وفي الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين أخذت شركات بناء السفن تعمل تدريجيا على تطوير الناقلات من حيث الحجم والسرعة . وادخال التحسينات الفنية عليها . فارتفع حجم الناقلة القياسي الى عشرة آلاف طن من الحمولة الساكنة بسرعة ١١ عقدة . وكان عدد الناقلات آنذاك حوالي ١٥٠٠ ناقلة . وخلال الحرب العالمية الثانية قامت الولايات المتحدة بتطوير الناقلة المعروفة باسم « ت ٢ » التي بلغت حمولتها الساكنة ١٦٦٠٠ طن وسرعتها ١٤,٥ عقدة . وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية . بدأ رجال صناعة البترول يدركون المزايا الاقتصادية للناقلات الكبيرة . ونتيجة للدراسات المستفيضة والتخطيط السليم والجهود الكبيرة التي بذلت في هذا المضمار . تقدمت صناعة الناقلات تقدما سريعا لم يشهده العالم من قبل .. ففي حين كانت الحمولة الساكنة لأكبر ناقلة زيت في العالم ٢٤٠٠٠ طن خلال الحرب العالمية الثانية ارتفعت ارتفاعا مذهلا حتى بلغت ٣٢٦ ألف طن في عام ١٩٦٨ . وتقوم اليابان حاليا ببناء ناقلة تبلغ حمولتها الساكنة ٤٧٧ ألف طن . كما تجرى في الوقت نفسه دراسات وأبحاث حول امكان بناء ناقلات في المستقبل تربو حمولتها الساكنة على نصف مليون طن .

الناقلات الحديثة وتكاليف النقل

لا شك في أن ضخامة الناقلات لها أثرها المباشر في تخفيض أجور النقل الى حد كبير . ويمكن القول . بوجه عام . أن أجرة نقل برميل واحد من الزيت تتناسب تناسبا عكسيا مع حجم الناقلة . بيد أن هناك عوامل اقتصادية أخرى لها أثرها في هذا الشأن . علاوة على حجم الناقلة . من بينها تكاليف بناء الناقلة . وتكاليف تسييرها وصيانتها . ومرافق التحميل والتفريغ . ورسوم الموانيء . وسرعة الناقلة . ونوع وقودها . وطاقة ضخها .. الى غير ذلك من العوامل التي تدخل في الاعتبار عند تقدير الجدوى الاقتصادية من بناء هذا النوع من الناقلات . هذا وتتفاوت تكاليف بناء الناقلات تفاوتا كبيرا فيما يتعلق بحالة السوق في الوقت الذي يوصى فيه على بنائها . ولما كانت أكثر التقديرات تعتبر العشرين سنة الأولى من عمر الناقلة الضخمة هي الفترة المجدية من استخدامها أصبح العبء الأكبر للاستفادة القصوى من الناقلة خلال هذه المدة يقع على كاهل المهندسين والمختصين في ادارة الأعمال البحرية . فهم يبذلون قصارى جهدهم وخبرتهم الفنية قبل بناء ناقلة ضخمة من هذا النوع وأثناء بنائها .

ومن الدول التي تتوفر فيها أحواض بناء مثل هذه الناقلات الضخمة : المانيا الغربية . والدانمارك والمملكة المتحدة . واليابان . والولايات المتحدة الأمريكية . ويظهر من التقارير الأخيرة أن الطلب على الناقلات أخذ يزداد بشكل لم يسبق له مثيل . فمثلا بلغ عدد الناقلات المطلوب بناؤها حتى منتصف عام ١٩٧٠ . ٥٤٠ ناقلة . من بينها ٢٤٦ ناقلة تزيد الحمولة الساكنة لكل منها على ٢٠٠٠٠٠ طن . كما تشير تلك التقارير الى أن مجموع الحمولات الساكنة لأسطول الناقلات العالمي حتى ذلك التاريخ وصل الى أكثر من ١٥٣ مليون طن . هذه الحقائق تعكس بجلاء الطلب المتزايد على الزيت من جهة . والاهتمام البالغ بزيادة حجوم الناقلات من جهة أخرى . وهناك من يقول بأنه مهما بلغت هذه الناقلات من الضخامة . فانها ستبقى عاجزة عن اللحاق بتطور صناعة الزيت .

ميزات الناقلات العملاقة

لا يستطيع أحد أن يتصور ضخامة أي من الناقلات الضخمة الا اذا صعد الى سدتها . فلو أمكن لناقلة تبلغ حمولتها الساكنة ٢٥٥ ألف طن . على سبيل المثال . أن تقف منتصبة على مؤخرتها لبدت شامخة كأضخم ناطحة سحاب . ويبلغ طول الواحدة منها نحو ١٠٥٠ قدما . أي ما يوازي طول ثلاثة ملاعب لكرة القدم . وتحتاج سطوحها الخارجية من الدهان ما يغطي مساحة مقدارها ٣٢ فدانا . كما تستطيع الناقلة الواحدة من هذا النوع أن تحمل ما يقرب من مليوني برميل من الزيت الخام في الرحلة الواحدة ويراعى دائما في نقل مثل هذه الكميات الهائلة من الزيت عاملا التكاليف والوقت المتعلقان بالتعبئة والتفريغ . وهذا الأمر يتطلب دقة بالغة في التنسيق لتجنب أي تأخير ينجم عنه نفقات اضافية . من ضمنها تكاليف التشغيل اليومي . وتلعب شبكات التحميل الأتوماتيكية دورا كبيرا في الوقت اللازم للتحميل والتفريغ . فالناقلة التي

٢

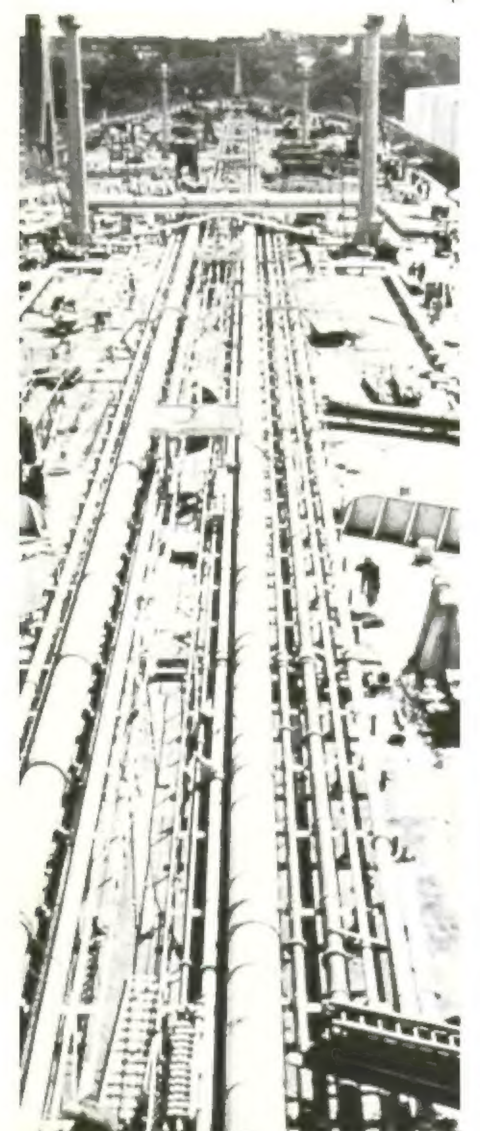
تبلغ حمولتها مليوني برميل من الزيت الخام تتم تعبئتها في نحو ١٥ ساعة وتفريغها في ٢٤ ساعة تقريبا ، هذا اذا كانت مرافق الشحن في الميناء قادرة على تشغيل مضخات الناقلة بأقصى طاقتها .

أما من حيث سرعة الناقلة الحديثة فهي تتراوح بين ١٥ و ١٧ عقدة بحرية ، وتبلغ طاقة محركاتها حوالي ٣٢٠٠٠ حصان ميكانيكي . وهذه القوة الهائلة تدير مروحة واحدة قطرها ٢٨ قدما ، أو ما يعادل ارتفاع منزل مؤلف من طابقين . ويصنع معظم الناقلات الحديثة من الفولاذ الخفيف ، الشديد المرونة ، وهذه ميزات لم تكن متوفرة في الناقلات القديمة ، فضلا عن أن ذلك النوع من الفولاذ يقلل من وزن الناقلة ، مما يجعلها أكثر قدرة على حمل المزيد من الزيت .

لا تختلف الناقلات العملاقة عن مثيلاتها من الناقلات الصغيرة من حيث وسائل قيادتها وادارة دفتها . ولتأمين سلامتها ، فهي مزودة بأحدث الوسائل الملاحية الألكترونية الدقيقة وأجهزة الرادار ، بالاضافة الى جهاز حديث يستخدم عند ارساء الناقلة . وتضم غرفة مراقبة الآلات في الدفة من الأجهزة الألكترونية والعدادات الأوتوماتيكية ما يضمن مراقبة عملية التحميل أو التفريغ بدقة بالغة ، هذا الى جانب شبكة الاتصال اللاسلكي الواسعة .

وتجنبا لحدوث أي تلوث في البحر أو في الميناء الذي تقصده الناقلة فقد عمد الى تجهيزها بخزانات خاصة تتجمع فيها رواسب الوقود المحروق . وجدير بالذكر أن الناقلة الحديثة توفر لطاقمها مرافق سكنية مريحة ومكيفة ومفروشة فرشا جيدا ، هذا بالاضافة الى قاعات الطعام الفسيحة وعرض الأفلام الترفيهية وبركة السباحة . كما تضم أيضا مكاتب حديثة وعيادة صغيرة

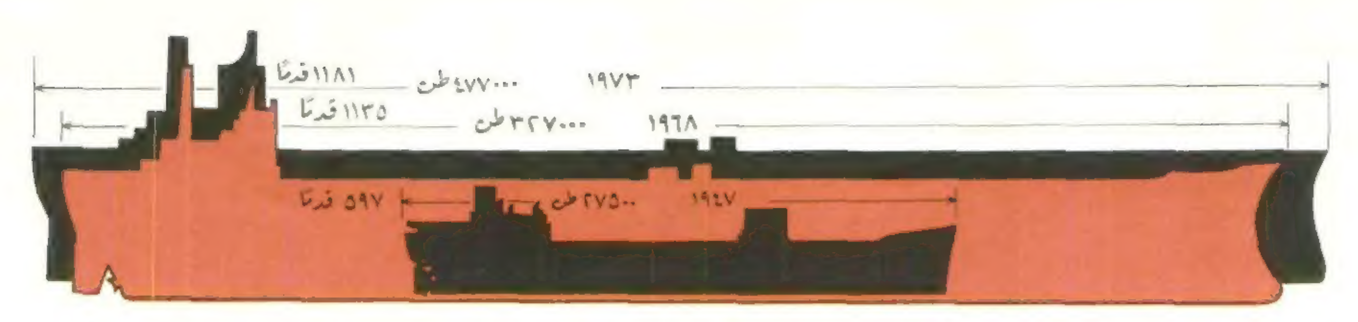
٣



١ – الناقلة العملاقة « تيوسو مارو » أثناء شحنها بغاز البترول السائل من فرضة رأس تنورة البحرية .. ويبدو في مقدمة الصورة المرشد السعودي أحمد قديبي وهو يعطي تعليماته الخاصة بالتحميل .
تصوير : « أحمد منتاخ »

٢ – الناقلة العملاقة « اسو سكوتشيا » وهي من كبريات الناقلات التي أمت فرضة رأس تنورة البحرية ، حيث حملت ما يقرب من ٢٥٠٠٠٠ طن من الزيت السعودي ، ويبلغ طولها ١١٤١ قدما وعرضها ١٧٠ قدما ، وتسيرها آلة طوربينية قوتها ٣١٥٥٠ حصانا .
تصوير : « شيخ أمين »

٣ – شبكة من الأنابيب تغطي سدة ناقلة زيت يبلغ طولها ١١٣٥ قدما .
« تكساكو ستار »



رسم ايضاحي يبين مدى التطور الذي سيطرأ على حجم ناقلات الزيت العابرة للمحيطات في المستقبل والذي سيصبح في عام ١٩٧٣ ضعف ما كان عليه في عام ١٩٤٧ .. وستبلغ حمولتها الساكنة ٤٧٧٠٠٠ طن .



يتطلب بناء ناقلات الزيت استخدام المعدات الثقيلة والرافعات الضخمة والمصاعد الكهربائية . « تكساكو ستار »

مجهزة بما يلزم من أدوات وعقاقير وأدوية . وعلى الرغم من التخفيض في عدد البحارة الناجم عن ادخال وسائل التسيير الذاتي في الناقلة العملاقة . فان دور البحارة في تشغيل الناقلات وقيادتها سيظل أمرا حيويا لا يمكن الاستغناء عنه اطلاقا .

وتشير احصاءات خبراء الناقلات الى أنه في نهاية عام ١٩٧٠ ، أربى عدد ناقلات الزيت التي يضمها أسطول الناقلات في العالم والتي تتراوح حمولتها الساكنة من ١٠ آلاف طن الى ٣٠٠ ألف طن على ٣٠٠٠ ناقلة ، ويبلغ اجمالي حمولاتها الساكنة ١٦٥ مليون طن .. هذا بالاضافة الى مئات الناقلات الأخرى التي أوصي ببنائها خلال السنوات القليلة المقبلة ..

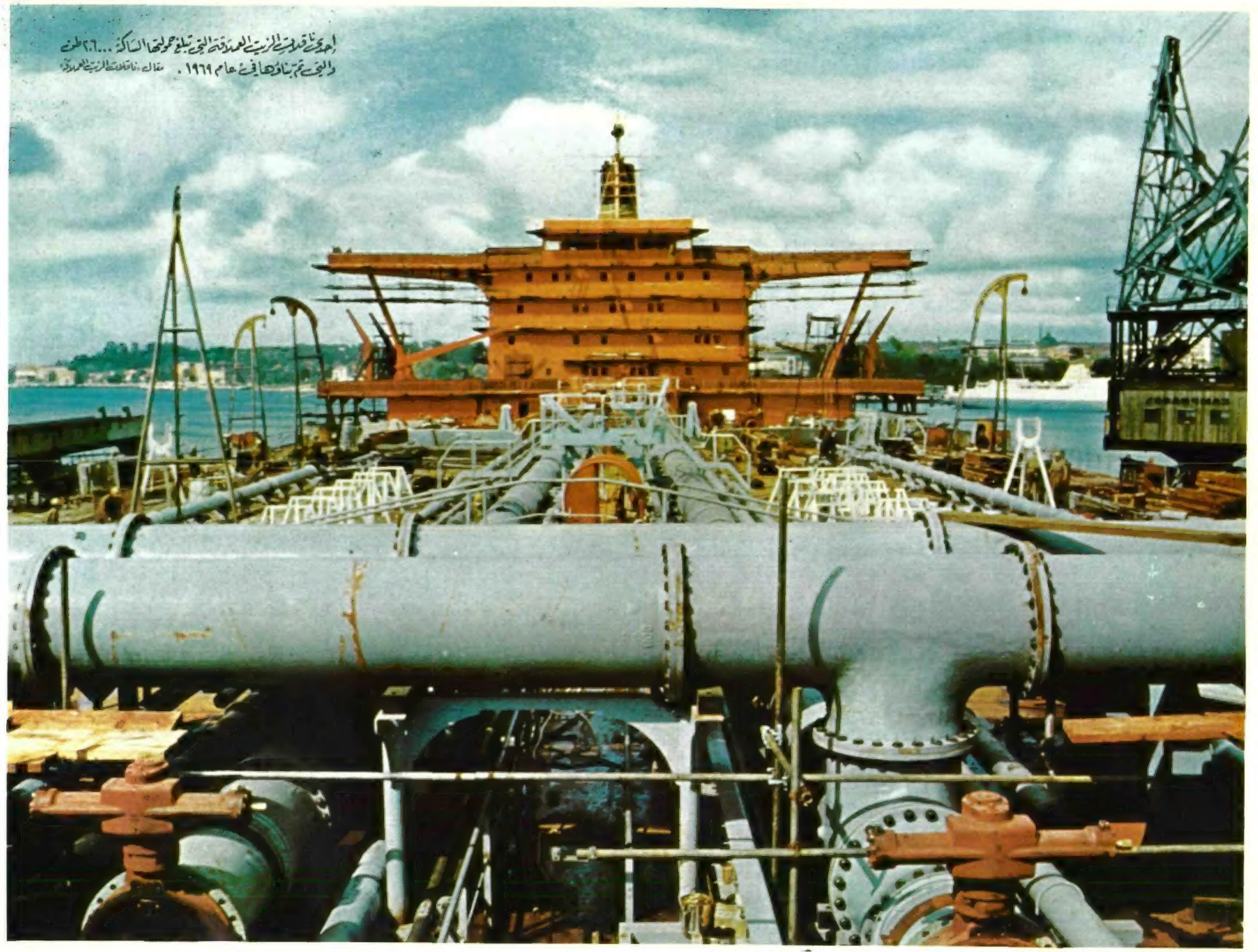
الحاجة الى موانئ ضخمة

لقد واكب التطور الحثيث في بناء ناقلات البترول الضخمة ، تطور مماثل في عدد كبير من الموانيء في العالم ، لتتمكن من استقبال الأعداد المتزايدة من هذا النوع من الناقلات . والجدير بالذكر أن العمل يجري الآن على قدم وساق في ١٦ مشروعا لتوسيع المرافيء يضاف اليها ٢٦ مشروعا مماثلا لا تزال قيد الدراسة . ويواجه الكثير من هذه المشاريع عقبات مختلفة كارتفاع التكاليف ، وصعوبة التنفيذ ، والمشاكل التكنولوجية التي تجابه المخططين ، فضلا عن اعتبارات تلوث المياه وغير ذلك . ومع أن عمليات التوسيع تتناول مرافيء منتشرة في مختلف أرجاء العالم الا أن معظم مشاريع التطوير مركز على موانيء أوروبا الغربية واليابان التي تستقبل زهاء ٧٥ بالمائة من مجموع انتاج الزيت الخام في منطقة الخليج العربي . وفي الوقت الحاضر ليس هناك سوى ٢٠ ميناء تستطيع استقبال الناقلات العملاقة التي تزيد حمولتها الساكنة على ١٥٠ ألف طن ، وفي طليعة هذه الموانيء ، ميناء رأس تنورة البحري في المملكة العربية السعودية الواقع على الشاطيء الغربي للخليج العربي . وهو يتألف من فرضتين رئيسيتين فيهما عشرة مراس لاستقبال الناقلات الصغيرة والمتوسطة ، ومن جزيرة اصطناعية في المياه العميقة ذات ستة مراس ، لاستقبال الناقلات العملاقة وتحميلها بالزيت الخام والمنتجات المكررة . وقد جرى مؤخرا تعميق الممر الذي تستعمله الناقلات لدى مغادرتها ميناء رأس تنورة بحيث أصبح يتسع لمرور الناقلات التي تصل حمولتها الساكنة الى ٣٠٠٠٠٠ طن وهي بكامل حمولتها .. ولرفع طاقة الفرضة البحرية في رأس تنورة على شحن الزيت الخام أقامت شركة الزيت العربية الأمريكية « أرامكو » شبكة جديدة للتحميل اشتملت على مضخات لسحب الزيت من خزانات الفرضة ، ومضخة تحميل طاقتها ٦٥٠٠٠ برميل في الساعة وخط أنابيب قطره ١٠٧ سنتمترات وطوله حوالي أربعة كيلومترات يمتد الى الجزيرة الاصطناعية الآنفة الذكر في المياه العميقة .. وقد أدى ذلك الى زيادة الطاقة على الشحن بنسبة ٢٠ في المائة تقريبا .. هذا وقد بلغ عدد الناقلات التي أمت فرضة رأس تنورة البحرية منذ مطلع عام ١٩٧٠ حتى نهايته ٣١٧٠ ناقلة ، حملت ما مجموعه ١١٦٥٦٠٤١٨٣ برميلا من الزيت الخام والمنتجات المكررة .

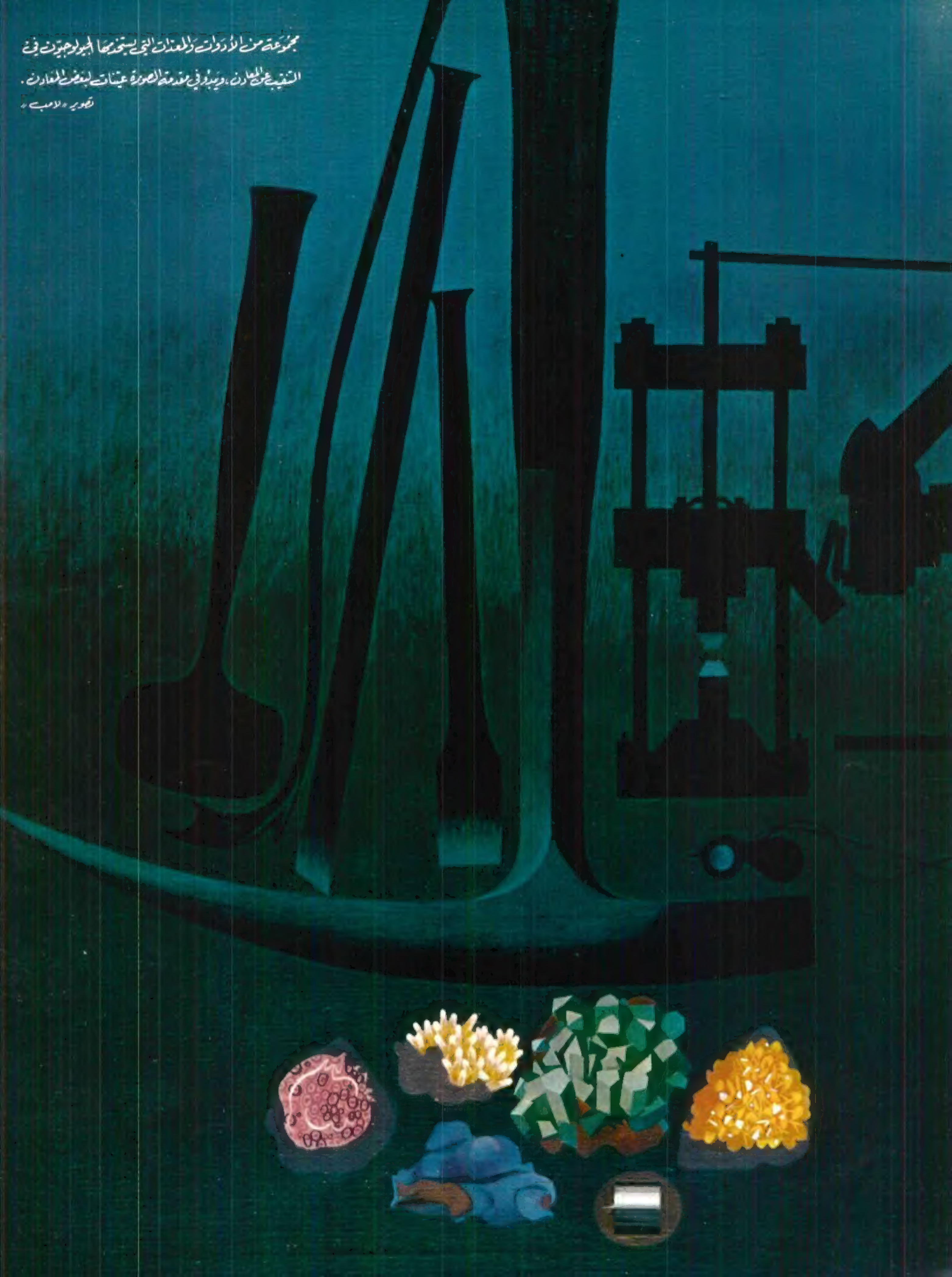
مستقبل الناقلات الصغيرة

قد يتبادر الى الذهن أن حركة بناء الناقلات الضخمة التي أخذت تعم العالم ستحد من استعمال الناقلات الصغيرة ، الا أن الحقائق تثبت عكس ذلك . اذ لا يعني التحول الى الناقلات العملاقة الاقلال من أهمية الناقلات الصغيرة . فهذه لا تزال تلعب دورا مهما في نقل المنتجات المكررة ، كالبنزين ووقود النفاثات ، علاوة على الزيت الخام وزيوت الوقود الثقيلة الى الموانيء التي لا تتسع مرافقها لاستقبال الناقلات العملاقة . وهناك ناقلات صغيرة مصممة لنقل مشتقات بترولية معينة كناقلات غاز البترول السائل وغيره ■

س. ن



إحدى ناقلات الزيت العملاقة التي تبلغ حمولتها الساكنة ٢٠٦٠٠٠ طن والتي تم بناؤها في عام ١٩٦٩ . مقال : ناقلات الزيت العملاقة



مجموعة من الأدوات والمعدات التي يستخدمها الجيولوجيون في التنقيب عن المعادن، ويبدو في مقدمة الصورة عينات لبعض المعادن.

تصوير «لاعب»